سهير القلماوي

رسائل صينية

لويس دكنسن

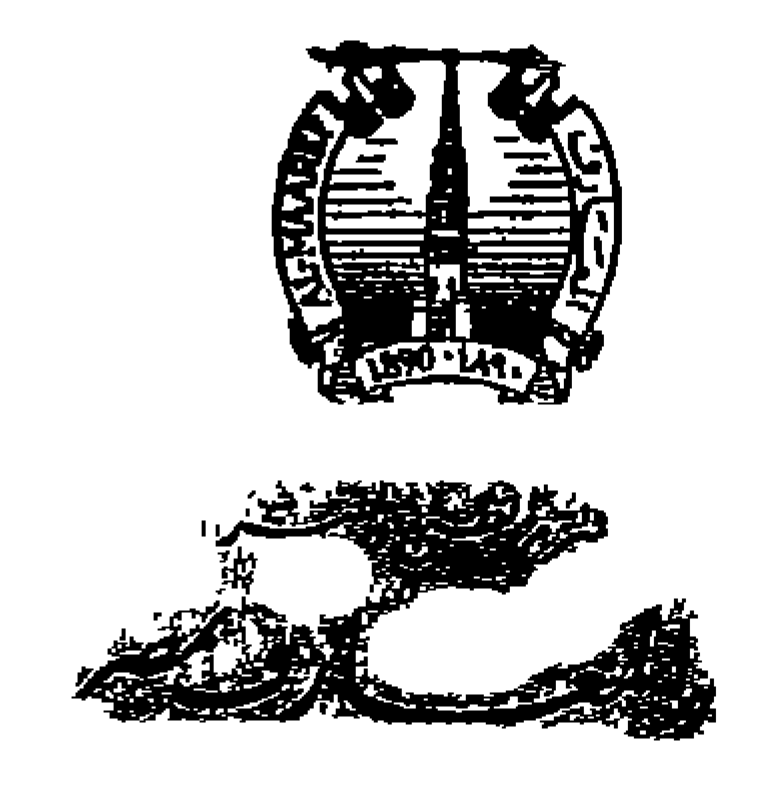


ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

سهير القلماوى

رسائل صينية

لويس دكنسن



مقدمة

ظل اتصال الغرب بالشرق فى العصور الوسطى اتصال تجارة قلما يتعدى ذلك إلى ما يمكن أن يكون بينهما من صلات . حتى كان عصر الحروب الصليبية فبدأ الغرب يتطلع إلى ما قد ظل طويلا فى أيدى الشرق من نفوذ وسلطان ومال .

وما كادت شمس النهضة تشرق على أوربا الغربية حتى تعرض هذا النفوذ والسلطان والمال إلى أشد أخطار الزوال . وكان أول ما بهر الغرب عند ما زار الشرق ليستكشفه تمهيداً لغزوه هو هذا الثراء الضخم والبذخ العظيم اللذين رآهما فى تركيا خاصة زعيمة الشرق إذ ذاك ومقر حكومته .

ولما كان الشرق ما يزال مجهولا إلا من طبقة المتأدبين ، وحتى هذه الطبقة لم تكن لتعرف عنه إلا النزر اليسير ، فقد كانت الحكومات الأوربية تختار هؤلاء المتأدبين ذوى الإلمام اليسير بالشرق ، فهو أحسن من لاشئ ، ليكونوا

سفراءها إليه. ليتعرفوا لها مجاهيله فيمهدوا لها سبيل الفتح والسيطرة على أساس من المعرفة الحقة.

ولسنا بصدد ما أدّاه هؤلاء المتأدبون لأممهم في السياسة ولكننا نعنى بما أنتجوه في عالم الأدب. فقد تفننوا، هم ومن قرأ لهم من الأدباء، فاستوحى ما كتبوا، في وصف بذخ الشرق واتساع سلطانه. وأثار إعجابهم بل تعجبهم كثيرٌ مما رأوا من عجيب الماديات والمعاملات والنظم. فاستغل الشرق في الأدب الغربي كثيراً في تلك الفترة. لقد فتَّح آفاقا واسعة جديدة من الخيال وآثار طائفة منوعة طريفة من العواطف. وتعددت سبل استغلال الشرق في الأدب الغربي فكان من أقواها وأمتعها إستغلاله كستار مزركش يخفي وراءه الكاتب ما يريد من نقد لأمته لا يستطيع أن يجهر به أمام السلطان الناشئ القوى في أوربا. فما أسهل ما يرمز للكنيسة بالجامع وللملك بالسلطان التركي، أو ما أسهل أن ينقد الأديب نظم بلده على لسان أجنبي جاء يزورها وله العذر لأنه غريب في أن يرى شذوذ ما ألفه الناس. وهكذا وجد الأدباء لنقدهم منفذاً سهلا جميلا لا ينقض

من فهم القراء له بل يزيدهم على هذا الفهم إمتاعاً ولذة .

وكتب الكتاب كثيراً عن الشرق مبهورين وواصفين وناقدين . ولكنهم تنبهوا أخيراً إلى أن وراء هذا البذخ بل وراء تلك العجائب روحاً يستحق منهم أن يقفوا أمامه رغم ما قد أسدل عليه من أستار . فوقفوا وإذا بهم يتعرفونه فيحترمونه بل يتطلعون إليه فى لهفة فقد أقفرت منه مدنيتهم الغربية على جلال جمالها وخطر شأنها . وكلما سارت مدنيتهم فى خطاها الواسعة نحو رقى العلوم ونحو السيطرة على المادة سارت فى الوقت نفسه نحو الافتقار فى الروح الإنسانى والإيمان بالله . فأحس كتّابهم على مرّ الزمن ظمأهم لهذا الروح العظيم الذى فقد الشرق كل شيء سواه فعاش راضياً بما فقد قوياً متطلعاً إلى المستقبل فى صبر وإيمان بما لم يفقد .

وهذه رسائل من هذا النوع من الأدب قد سار الزمن بصاحبها حتى عصرنا هذا الحديث ؛ وقد اتسع أفق الشرق فى نظر الغرب حتى شمل الشرق الأقصى ؛ واتسعت كذلك الهوة التى تفصل الغرب عن روح الشرق القوى المتين بتقدم المدنية

الصناعية الحديثة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه رقيًّا وإتقانا .

ومؤلف هذه الرسائل التى أخرجت على لسان رجل صينى كاتب إنجليزى معاصر هو لويس دكنسن Lowes Dickenson قد عرفه قراء العربية بكتابين من أمتع كتبه . الأول هو معرض الآراء الحديثة وقد نقله الأستاذ محمد رفعت . والكتاب الثانى كتاب العداله والحرية وقد نقله الأستاذ محمد بدران . وأخرجت الكتابين لجنة التأليف والترجمة والنشر . أما هذا الكتيب الصغير فهو يختلف كثيراً عن كتابيه السابقين فى أنه لا يتعرض إلى النظم السياسة وفكرة الحكم بقدر ما يتعرض إلى المدنية الشرقية أو الصينية بالذات كوحدة كاملة تشمل نظام المجتمع والأسرة والفرد . وهو هنا يقارن فى صراحة بين ما عرف الصين من معنى الحياة فأسعدهم وما عرف الغرب من معناها فأتعسهم . ولقد استغل حوادث الأزمة التى كانت على أشدها منذ أعوام مضت بين الصينيين والإنجليز ليغذى بهذا الخلاف الواقعى آراءه فى الاختلاف الجوهرى المعنوى بين مدنية الشعبين بل بين الصينيين والأوربيين عامة .

ولقد سماها رسائل «جون الرجل الصينى» ونشرها منذ أكثر من أربعين عاما دون إمضاء ليخيل إلى القارئ أن كاتبها رجل صينى بالفعل ،وافتعل فى أسلوبه افتعال الغريب عن لغة يكتب بها ليتقن الخدعة .كان يستعمل ألفاظاً مهجورة بدل ألفاظ شائعة أو أن يعنى من معانى الكلمة غير معناها الشائع عنها أو أن يركب الجملة تركيباً غير مألوف ، وهكذا مما كان مصدر عناء غير يسير فى الترجمة .

والعجيب أن القرّاء صدقوه فى هذا الزعم . بل إن منهم من قد أتاح له عمله ظروفاً لفهم الحياة فهماً صحيحاً كالزعيم الأمريكى « براين » ولكنه صدق هذا الزعم ولم يتبين حيلة المؤلف . ولما أعاد نشر الرسائل منذ أعوام قليلة باسمه لم تفقد بهجتها بعد أن أزاح المؤلف الستار عن خدعته التى جازت على قرائه وأضافت إلى رسائله لوناً خاصاً من الخيال .

وعاش مؤلف هذه الرسائل بعد تأليفها أعواماً يرى صدى ما قد ألّف فى نفوس الناس وأثر ما قد نشر من آراء فى سبيل تغيير أسس ما قد بنوا مدنيتهم عليه . ولكن الناس قابلوه،

كما قابلوا كل مصلح من الكتاب قبله ، بالإعجاب والتصديق ثم الوقوف عند هذا الحد . وقامت الحرب العالمية الأولى فتوقع الناس على أثرها خيراً . ولكن سرعان ما عادت الحياة فى أوربا سيرتها الأولى ، وكأن دماء هذه الملايين قد أريقت سدى ، بل كأنها لم ترق إلا فى سبيل إشباع مطامع حقيرة. وكانت الصدمة قوية فاهتز لها العالم . وتلت الحرب ونتائجها فترة وجوم حزينة ما لبثت أن تطورت إلى فترة استعداد لحرب ثانية لتحقق للناس ما لم تحققه الحرب الأولى . وكأنما قد عيل صبر هذا الكاتب فمات فى تلك الفترة . وقامت الحرب الثانية لتحقق آماله فى العدالة والحرية والسعادة الإنسانية . ولكنه كان قد قضى ، شفقة على نفسه من تحمل صدمة أخرى أو شفقة على نفسه من تحقيق الحلم المأمول فمن يدرى ؟

والآن وقد كثر الكلام والنقاش بعد هذه الحرب العالمية الثانية حول مدنية الشرق ومدنية الغرب والمقارنة بينهما فى هذه المحنة التى يجتازها العالم فى صبر وألم ولكن فى أمل متطلع لمّا يخبْ بعد ، نرى نحن الشرقيين على الأقل أن فى

مثل هذه الرسائل نوعاً من الراحة أو الهدوء. لعل مبعثه التطلع إلى مستقبل قريب تقاس فيـــه المدنيات والأمم لا بمقدار ما حققت للحكام من نفوذ وسلطان، وتقوّم لا بمقدار ما أتاحت للأفراد من كسب ومال، ولكن تقاس وتقوّم بمقدار ما حققت لشعوبها من طمأنينة ومحبة وهدوء وسعادة.

ترى أيخيب الأمل مرة أخرى أم لا يزال لدى البريق اللامع أمل فى ألا يكون السراب ؟

سهير القلماوى

الرسالة الأولى

هذه هى الأحداث الحالية فى الصين تقص على الملأ من جديد قصة هذا التنافر الجوهرى بين المدنية الشرقية والمدنية الغربية . بل إنها لتظهر كيف أن جهل إحداهما بالأخرى واحتقارها لها قد أديا إلى ما أديا إليه فأوجدا هذا الإشكال الحالىّ فى الصين . ولقد لزمتُ الصمت طوال تمثيل تلك المأساة على مسرح الصين. ولكن شعور السخط المتزايد فى نفسى وأملى ، وإن يكن فى الواقع حلماً من الأحلام، فى أن ينمحى بعض سوء التفاهم بين الأمتين العظيمتين قد أرغمانى أخيراً على أن أفتح شفتىّ لأعرض على الجمهور البريطانى بعض وجهات النظر التى طالما ألحت علىّ فى أن أعلنها للناس . ولست أريد بحال أن أتحدث فى هذه الأزمة القائمة . إن مهمتى فى الواقع هى أن أبعث فى الشعب البريطانى تقديراً لمواطنىّ ولسياستهم أقرب إلى العدل والحق من تقديرهم

الحالى . وسبيلى إلى هذا هى أن أشرح لهم وجهة نظرنا نحن الصينيين نحو المدنية الغربية وأن أبيّن لهم لماذا نريد أن نحمى أنفسنا قدر المستطاع من آثار مدنيتهم تلك . وإخال أنى أهل لأداء مثل هذه المهمة الشاقة . فإن إقامتى الطويلة فى انجلترا تخولنى الحق فى أن أتكلم عن نظم الإنجليز بينما غيبتى الطويلة عن وطنى لم تجردنى من حق فى أن أتكلم عن نظم الصين . إن الصينى صينى حيث كان . وإنى لأعترف أنى أرى فيما وصلت إليه المدنية الغربية كثيراً مما يثير إعجابى ، ولكنى أعترف فى الوقت نفسه أنى لم أر بعد شيئاً يجعلنى أندم على أنى ولدت فى الشرق . يا له من اعتراف عجيب فيما يرى الرجل الإنجليزى ! فقد اعتدتم أن تنظروا إلينا على أننا همج . وقد يكون لكم فى ذلك بعض العذر . لأنكم فى الواقع لم تكونوا تلتفتون إلينا التفاتاً حقاً إلا حينما كنا نقتل مواطناً من مواطنيكم. وكان لكم أن تحكموا من مثل هذه الثورات العصبية الجامحة أننا أمة من القتلة الأشرار جامدى العواطف فاقدى الشعور . ونصيب حكمكم هذا علينا من الصحة كنصيب حكمنا نحن

على مدنيتكم إذا ما بنينا هذا الحكم على ما نراه من جيشكم في الصين . إنه يجب ألاّ يحكم علينا بما تفعله الجماهير منا ولا بما تفعله حكومتنا . فالحكومة ، إن حق لى أن أقول ذلك ؛ لا تمثل الأمة فى الصين . ولكن حتى هذه الأعمال الثائرة التى تثير سخط الطبقة المتعلمة من الصينيين أنفسهم تستحق منكم أيها الأوربيون ، فيما أجرؤ أن أراه ، نظرة أخطر مما نالت وسخطاً أقرب إلى التأنى والحذر منه إلى الاندفاع والتمادى . إن هذه الثورات ما هى إلا تعبير قوى عن شعور هو فى الواقع ، ويجب أن يظل أبداً ، العامل الأول فى علاقتنا بالغرب . وهذا الشعور هو أننا لا نطمئن أبداً إلى مدنيتكم . بل إننا نمقتها مقتاً شديداً . وأنتم ترجعون هذا الشعور إلى جهلنا وتعصبنا . والحقيقة ، واسمحوا لى أن أراها كذلك ، هى أن هذا الشعور يعتمد اعتماداً قوياً على أساس من المنطق الحق القويم .

ولكى أشرح لكم وجهة نظرى أطالبكم ، قرائى ، أن تقدروا هذا الذى أقول فى كثير من الجد وغير قليل من الصبر والتروى . إن مدنيتنا أقدم مدنية فى العالم . وليس معنى هذا

أنها تكون بذلك خير المدنيات . ولكن من المسلم به أيضاً أنها لا تكون بذلك شر المدنيات . بل إن الأمر لعلى العكس من ذلك . فهذا القدم نفسه ، مهما تكن الحال ، برهان قوى على أن نظمنا أو مدنيتنا قد يسّرت لنا شيئاً من الاطمئنان والاستقرار والثبات نبحث عنه عند أمم أوربا فلا نجده . وليست مدنيتنا مستقرة ثابتة فحسب ، ولكنها تقوم على نظام خلقى لا يجد ما يقابله فى مدنيتكم إلا الفوضى الاقتصادية . ولست أتعرض الآن إلى المفاضلة بين دينكم وديننا أو إلى المناقشة فى شىء من هذا القبيل . ولكن الذى لا شك فيه هو أن دينكم أضعف تأثيراً فى نفوس جماعتكم من ديننا فى نفوس جماعتنا . إنكم تعلمون ولا شك أن دينكم المسيحية ولكن مدنيتكم لم تكن مسيحية فى يوم من الأيام . بينما مدنيتنا نحن كونفوشية قلباً وقالباً . ومجرد وصفها بأنها كونفوشية معناه أنها خلقية أو ، على الأقل ، فأنا لا أسوق افتراضات ، أن العلاقات الخلقية بيننا هى العلاقات التى يوحى بها هذا الدين أصلا . أما عندكم فللعلاقات الاقتصادية المقام الأول بينكم . ثم تأتى محاولات

منكم لتطعيم تلك العلاقات بالأخلاق ولكن هذ لا يكون إلا بقدر ما تستطيع أن تسمح به تلك العلاقات الاقتصادية .

وهذه وجهة نظر أستطيع بيانها وإيضاحها بالمقارنة بين نظرتكم إلى الأسرة ونظرتنا نحن إليها . فالأسرةعندكم ، حسبما يستطيع الأجنبي على الأقل أن يرى ، ليست إلا مجرد وسيلة لإطعام الطفل وحمايته حتى يصل إلى سن يستطيع فيها أن يُعنى هو بأمر نفسه . فأنتم ترسلون أبناءكم ، مبكرين فى ذلك قدر المستطاع ، إلى مدارس داخلية حيث يحررون أنفسهم بأسرع ما يمكنهم من أثر البيت والأسرة . وما يكادون يصلون إلى سن مناسبة حتى تدفعوهم خارج البيت ليشقوا طريقهم أو ليخطوا حظهم كما تقولون . ومنذ تلك اللحظة ، أى بانتهاء اعتمادهم على والديهم ، كثيراً ما ينتهى اعترافهم بأن عليهم نحوهم واجباً . فلهم أن يذهبوا أنى شاءوا وأن يفعلوا ما أرادوا وأن يكتسبوا وينفقوا كيفما يحلو لهم . بل إنهم مخيرون فى أن يبقوا على الصلات التى بينهم وبين أسرتهم أو أن يفصموا عراها .

إن الفرد عندكم هو الوحدة وكل الوحدات حرة طلقة .

لا يرتبط أحد منكم بغيره ولا يجد لنفسه أصلا ثابتاً فى الأرض . إن مجتمعكم حسبما تصفون مجتمع يتقدم ، إنكم دائماً سائرون إلى الأمام . كل فرد منكم يحس أن من واجبه بل من المحتم عليه أن يشق لنفسه طريقاً جديداً . إنه من العار عندكم أن يظل الإنسان حيث ولد . فالرجل ، ليكون فى نظركم رجلا حقًّا ، يجب أن يغامر وأن يكافح وأن ينافس وأن يفوز . وإلى هذه الخصلة فى مجتمعكم يرجع بلا شك هذا النشاط العظيم الذى امتزتم به ، وهذا النجاح الهائل الذى أصبتموه فى كل الفنون المادية . ولكن إلى هذه الخصلة نفسها يرجع هذا الذى يصدم الرجل الصينى فى مجتمعكم ، هذا القلق والاضطراب والفقر فى الخُلق . فليس بينكم قانع وليس بينكم من يجد من وقته فسحة لأن يحيا لأنكم جميعاً منهمكون فى سبيل إنماء موارد العيش . إن الارتباط النقدى ، كما يقول بعض كتابكم ، هو الصلة الوحيدة التى تعترفون بها بين الناس .

أما فى الشرق فإنا نعد هذا كله من أمارات التوحش فى

المجتمع . إنا نقيس الحضارة لا بمقدار ما نجمّع من وسائل العيش ولـكن بقيمة هذه الحياة نفسها التى نحياها وبما تمتاز به من صفات . إن مجتمعاً انعدمت فيه الصلات الإنسانية بين أفراده وتقلقلت حاله ولم يقدس ماضيه ولم يحترم حتى حاضره وكل ما فيه تلهف لنيل ما سيأتى به الغد، إن مجتمعاً تلك صفاته ومزاياه لا نراه نحن مجتمعاً حقاً . إنا لا نرضى ، بل إنا لا نقبل أن نـكون أوفر منكم مالا وأبرع منكم علماً وأرقى منكم فناً إذا كان ثمن هذا أن نتبع النظم التى تسيرون عليها ! !

إننا فى كل هذا على النقيض منكم ، فنحن ننظر أولاً إلى المجتمع ثم إلى الفرد . إن القاعدة عندنا أن يولد المرء منا وسط هذه الصلات والعلاقات التى سيستمر محافظاً عليها مدى حياته . ينتهى حيث بدأ فرداً فى أسرته . وعلى ضوء هذه الحقيقة بل وفقاً لها يرسم لنفسه خطة حياته كلها التى سيحياها . إنه يُعلّم كيف يقدس أجداده وكيف يجلّ والديه ويطيعهما وكيف يعدُّ نفسه منذ سن مبكرة إلى القيام بأعباء الزوجية والأبوة . إن الزواج عنـــدنا لا يحـلل الأسرة

ولا يشتتها . فالزوج يبقى فى أسرته لا يقتطع منها . وزوجه تصبح فرداً يضم إلى جماعته وأقاربه . وهذه الجماعة هى الوحدة الإجتماعيـة عندنا . لها أرضها ولها معبدها ولها مراسيمها الدينية ولها محكمتها الخاصة التى تفصل فى المنازعات بين أفرادها. إن أحداً فى الصين لا يحس نفسه وحيداً إلا إذا جنى هو على نفسه ذلك بما قد ارتـكب من إثم . وإن يكن ليس من السهل أن يثرى الصينى فإنه ليس من السهل أيضاً أن يجوع . وإن يكن ليس ثمة ما يدفعه إلى المنافسة والمـكافحة فليس ثمة أيضاً ما يدفعه لأن يغش أو يظلم أو يضطهد . وإذ قد حرر نفسه من عذاب الطمع وخوف الحرمان فقد تحرر كذلك من كدّ السعى وراء جمع وسائل العيش ، وأصبحت لديه الفرصة الكافية لأن يحيا الحياة نفسها . وبفضل تلك الفسحة فى وقتـه وبفضل غريزته الإنسانية أيضاً يستطيع الصينى أن ينعم بمباهج الطبيعة حوله وأن يرقى خلقه ويهذبه وأن يوجد بينه وبين إخوانه علاقات إنسانية طيبة لا تشوبها الأغراض ولا تفسدها المطامع . والنتيجة لـكل هذا هى وجود نوع من الإنسان فى الصين

لا نملك إلا أن نعدّه من الناحية المعنوية ، ومن حيث الخلق والقيمة الإنسانية ، أرقى من السواد الأعظم من مواطنيكم فى أوربا . وبينما نعترف بعظمة مدنيتكم العلمية و العملية نرى فى الوقت نفسه أنه من المستحيل أن نعجب ، بلا قيد ولا شرط ، بمدنية أدت إلى معاملات هذه غلظتها وأخلاق هذه خستها ومظاهر قد بعدت عن الجمال كل هذا البعد كالتى تصدمنا دائماً فى عواصمكم الكبرى . إننا نسلم بأنه لا يمكن أن نوصف بالرقى أو التقدم ولكننا ندرك أن هذا التقدم قد يكون فاحش الثمن . ونحن نفضل مزايانا المعنوية على مزاياكم المادية . بل إننا مصممون على أن نتعلق بنظمنا التى نؤمن أنها تكفل لنا تلك المزايا الخلقية وأن نحافظ عليها ولو كان ثمن ذلك الحرمان من مزاياكم المادية .

الرسالة الثانية

اجتهدت فى رسالتى السابقة أن أبين الفروق البارزة بين مدنيتنا ومدنيتكم ، هذه الفروق التى أدّت أخيراً إلى النزاع بيننا . ولقد برّرت الحوادث الأخيرة فكرة أننا نحن المعتدون فى هذا النزاع ، ولكن الواقع أن لا شىء أبعد عن الحقيقة من هذا . لأننا لو تركنا لأنفسنا ما سعينا قط إلى الاتصال بالغرب فليس ثمة ما يحفزنا إلى شىء من هذا . إننا لا نريد أن نبدّل عقائد الناس ، ولانريد أن نتّجر معهم . إننا نعتقد ، بلاشك ،أن ديننا أقرب إلى المنطق من دينكم ، وأن أخلاقنا أرقى من أخلاقكم ، وأن نظمنا أدنى إلى الكمال من نظمكم ، ولكننا فى الوقت نفسه ندرك أن ما يناسبنا نحن قد لا يناسب غيرنا من الناس . ولا يُخيل إلينا بحال من الأحوال أن علينا رسالة نحو العالم – ننقذه من الشر أو ندعوه إلى الرقى . وأبعد من هذ أن نتصوّر أن مثل هذه الرسالة يمكن أن تؤدى بالسيف والنار .

نحن قوم راضون قانعون ، نحمد الله إذا استطعنا أن نحلّ مشاكلنا نحن دون أن نثقل كاهلنا بمشاكل غيرنا .

وإذا كنا غير مضطرين لأن نتدخل فى أموركم برغبة الدعوة إلى ديننا فنحن كذلك غير مضطرين إلى التدخل فى أموركم بضغط حاجاتنا التجارية . إننا فى غنى عن غيرنا سياسياً واقتصادياً . فالذى ننتجه نستهلكه ، والذى نستهلكه هو ما ننتجه . إننا لا نحتاج إلى إنتاج الأمم الأخرى ولا نسعى إليه ، بل إننا نؤمن أن جانب الظلم فى إشهار الحرب على غيرنا بقصد فتح أسواقهم التجارية لا يقل خطراً عن جانب التهوّر فى مثل هذا العمل . إن المجتمع الذى يريد لنفسه أن يكون ثابتاً من الناحية السياسية لا بد — فيما نعتقد — أن يكون مستقلا اقتصادياً . بل أكثر من هذا ، إننا نرى أن التوسع فى التجارة الخارجية يقود حتما إلى التدهور الاجتماعى .

ومن هذا ترون أن مبدأنا فى هذه المسألة كمبدئنا فى كل شىء آخر ، يخالفكم كل المخالفة . فأنتم لا تؤمنون أن دينكم وحده هو الدين الحق فحسب ، ولكنكم تعتقدون فى الوقت

نفسه أنه من واجبكم أن تفرضوا هذا الدين على الأمم الأخرى فرضاً ولو بحدّ السيف . وإن كان هذا الاعتقاد فى وجوب نشر دينكم يدفعكم إلى الاعتداء على غيركم ، فإن هنالك دافعاً آخر لهذا الاعتداء أقوى منه وأشد خطراً . ذلك أن مجتمعكم من الناحية الاقتصادية قد بُنى على نحو يجعله دائماً على حافة الهلاك جوعا . فأنتم لا تستطيعون إنتاج ما تحتاجون إلى استهلاكه ، وفى الوقت نفسه لا تستطيعون استهلاك ما أنتم مضطرون إلى إنتاجه . إن المسألة بالنسبة إليكم مسألة حياة أو موت ، لابد لكم من أن توجدوا أسواقاً تتخلصون فيها من إنتاجكم وتحصلون منها فى الوقت نفسه على قوتكم وخاماتكم . والصين أليق ما تكون لتحقيق هذا أوقد تكون كذلك . وفتح هذه السوق هو ، فى الحقيقة ، الدافع فى كل معاملتكم معنا فى هذه السنوات الأخيرة وإن اجتهدتم فى حجب هذا الدافع بقناع شفّاف . أما الحكم على مثل هذه السياسة من الناحية الخلقية ، أو حتى من ناحية العدل المحض ، فإنى لا أتعرض له ، إنها سياسة تمليها الحاجة المادية ما فى ذلك

شك . وعلى هذا الأساس أرى أنه من العبث أن نناقشها . كل ما أريده الآن هو أن أعرض وجهة نظرنا نحن فى هذه السياسة، وأن أبين لكم الدوافع التى تدفعنا إلى استنكار اعتدائكم.

إنه لعجيب حقاً ، فيما يرى التاجر البريطانى العادى ، أن نعترض نحن على ما تسمونه أنتم فتح منابع الثروة القومية . إن التاجر البريطانى العادى ينظر إلى كل شىء ، كما اعتاد أن يفعل دائماً ، من وجهة نظر المكسب والخسارة ، وهو يعتقد أنه ما دام قد ثبت أن طريقاً من الطرق تقود حتما إلى ازدياد الثروة ، فإن معنى هذا أن مثل هذه الطريق يجب أن تُسلك. وهو مقتنع أن فتح أبواب الصين للأموال الأجنبية والتجارة الخارجية يؤدى بلا شك إلى نماء الثروة ، فيستنتج من ذلك أنه من صالحنا إذن أن نرحب بمشروعاته بدل أن نقاومها . وهو محق بلا شك إذا أخذنا بوجهة نظره . ولكن وجهة نظرنا تختلف عن هذه جد الاختلاف ؛ فقد اعتدنا قبل أن نسلك أى طريق ، أو قبل أن نتخذ أى قرار فى سياستنا ، أن نقدر عواقب الأمور لا من حيث مجرد أثرها فى مجموع ثروتنا ،

ولكن من حيث ما يختلف عن هذا كل الاختلاف ، من حيث أثرها فى كياننا الاجتماعى . فأنتم هم أنتم . تنظرون دائماً إلى وسائل الحياة ، بينما ننظر نحن إلى الحياة نفسها ، إلى صفتها و إلى قيمتها . وعند ما تطالبوننا ، كما تفعلون فى الواقع ، بأن نقلب مجتمعنا رأساً على عقب و بأن نتحول من أمة زراعية إلى أمة تجارية صناعية وبأن نضحى باستقلالنا السياسى والاقتصادى فى سبيل رخاء مزعوم ، و بأن نحدث ثورة لا فى صناعتنا فحسب ولكن فى معاملاتنا وأخلاقنا ونظمنا ، عند ما تفعلون ذلك لا أقل من أن تعذرونا إذا وقفنا وقفة لننظر نظرة فاحصة متأنية إلى الآثار التى أحدثها عندكم بالفعل هذا الذى تريدون منا أن ندخله فى الصين .

وإن استعراض هذه الآثار لا يشجعنا بحال . واسمحوا لنا أن نراها كذلك ، إنكم لكالأمير فى بعض القصص الخرافى قد أطلقتم جِنَّ المنافسة من قمقمه لا لشىء إلا لتتبينوا أنكم لستم بمستطيعين السيطرة عليه . إن تشريعكم طوال السنوات المائة الأخيرة ما هو إلا محاوله لتنظيم الاضطراب فى نظامكم

الاقتصادى . إن فقراءكم وعجزتكم وسُكاراكم ومرضاكم ومسنّيكم يثقلون كاهلكم ويؤرّقون نومكم . لقد فصمتم كل ما بينكم من عرى إنسانية ، وقطعتم كل ما بينكم من صلات شخصية ، وإنكم لتحاولون عبثاً أن تجعلوا نشاط الدولة ، هذا الكائن الغامض المبهم ، يحل محل تلك الصلات وهذه العرى . إن الصفة البارزة فى مدنيتكم هى عدم المسؤولية ، لقد أطلقتم قوى لا سلطان لكم عليها . إن الآلة التى صنعتموها عادت فافترستكم ، ففى كل ناحية من نواحى العمل ، وفى كل قسم من أقسامه ، نراكم تستبدلون الفرد بالشركة ، والعامل بالآلة . همكم الأول أن تقسموا الحصص . وأما رخاء العامل فليس لأحد أن يعنى به إلا الدولة ؛ وحتى فى هذا نرى أن الدولة عاجزة عن أن تقوم بشىء . فالعوامل التى تتحكم فى هذا الرخاء لا سلطان للدولة عليها . إنكم تعتمدون على كل ما يطرأ على العرض والطلب من تقلبات ، ولكنكم لا تملكون أن تحددوا هذه التقلبات ولا أن تحتاطوا لها . إن تلف محصول أو تغيير تعريفة فى قطر بعيد يقلقل صناعة الملايين الذين يبعدون عنه

آلاف الأميال ، إنكم تحت رحمة عبقرية مخترع ، أو حظ متأمل ، أو هويّة امرأة ، لا بل إنكم تحت رحمة آلاتكم نفسها . إن رأس مالكم كأن حيّ يلح دائماً فى طلب القوت . جوّعوه ينقلب عليكم ليخنقكم ويزهق أرواحكم ! إنكم تنتجون لا لأنكم تريدون ذلك ، ولكن لأنكم مضطرون إلى أن تنتجوا ؛ وتستهلكون لا ما ترغبون فى استهلاكه ، ولكن ما قد فرض عليكم استهلاكه . إن التاريخ لم يشهد تجارة مكبلة بالأغلال كتلك التى تسمونها التجارة الحرة . ويا ليتها كانت مكبلة بأغلال أوحى بها العقل . كلا إنها أغلال الأهواء المتزاحمة المتكاثفة التى يقف العقل أمامها عاجزاً مشدوها ! !

هذا هو اقتصادكم الداخلى كما تتكشف صورته للرجل الصينى ؛ ولا تتكشف علاقاتكم الخارجية عن صورة أقل استثارة لليأس من هذه . لقد كان ينظر منذ خمسين عاما إلى الاتصال التجارى بين الأمم على أنه سيتوّج عصراً ذهبياً من السلم والأمن ، ولا يزال بينكم فيما يلوح من يرى هذا الرأى ويتعلق بهذا المعتقد ، ولكنى لم أر معتقداً يناقضه الواقع

والحقيقة كما يناقضان هذا ! فالتنافس على الأسواق التجارية مدعاة للحرب لا للسلم ، وسبب أقوى فى الدفع إليها لا البعد عنها ؛ بل إنه لم يخلق من قبل سبب يعادله من حيث قوته فى الدفع إلى الحرب . فليست أطماع الأمراء شيئاً بالنسبة إليه ، ولا تعصب القساوسة مما يقاس به . إن أهل أوربا يتكالبون على أية بقعة بكر من بقاع الكرة الأرضية وينقضون عليها كالآساد الجائعة . ولقد قصروا ، إلى الآن ، مشروعاتهم الاستغلالية على هؤلاء الذين عدُّوهم خارج نطاق حدودهم . ولكنهم ينظرون إلى بعضهم البعض وهم يقسمون الغنيمة بينهم بعين الغيرة والحسد أبدا . وعاجلا أو آجلا عندما ينفذ ما يُقسّم بينهم سينقض بعضهم على بعض . إن هذا هو السبب الأصلى والسر الحقيقى فى تسلحكم . إنكم إما أن تَفترسوا وإما أن تُفترسوا . وهذه هى العلاقات التجارية نفسها التى ظُن أنها ستقرب فيما بينكم وتربطكم بوثاق السلم ، هذه هى وقد جعلت كلاّ منكم أعدى أعداء الآخرين وإنها لسوف تقربكم قربا يكفى لإشعال حرب الإفناء بينكم .

ولست، فى وصفى لمدنيتكم بما وصفتها به، مدفوعاً بتعصب وطنى جاهل. ولست أعتقد قط أن أهل أوربا هم بالطبع والسليقة شر من أهل الصين أو أشد منهم جهالة. لا! لا شىء من هذا بل على العكس منه، فإنه من المعتقدات الأساسية فى مذهبنا أن الطبيعة الإنسانية هى هى أنَّى كانت، وأنها هى الأحوال والظروف التى تجعلها إن خيِّرة وإن شريرة. فإذا كان النقص فى نظام اقتصادكم الداخلى والخارجى قد بلغ الحد الذى نراه قد انحدر إليه، فالسبب فى ذلك فيما نرى يجب أن يلتمس لا فى نقص طبيعى فى خلقكم القومى؛ ولكن فى نفس هذه النظم السياسية والاجتماعية التى تحثوننا على اتباعها فى بلادنا.

أتعجبون بعد هذا أن نقاوم بكل ما نملك أثركم فينا؟ أتعجبون أن الأذكياء منا، إذ يأسفون على العنف الذى عومل به بعض عملائكم بيننا، يشعرون فى الوقت نفسه أن هذا كله لا يمكن أن يعد شيئاً إذا قيس بالشر المستطير الذى لا يمكن أن يطاق، والذى سنصطليه لو أن مشروعكم فينا قد نجح؟.

الرسالة الثالثة

لقد قرأت منذ عهد قريب فى صحيفة من صحفكم «إن الهدف الأسمى لأمم أوربا هو أن تمدّن الصين» . فإذا كان الأمر كذلك فإن الوسائل التى اتخذت لتحقيق هذه الغاية وسائل فذة ولا شك . ولست آمن نفسى أن أخوض فى سيرتها . فأنا واثق من أن السلب والنهب والفوضى والخراب والقتل والاغتصاب أمور لا توافقون عليها هنا فى إنجلترا ، بل إنكم فيما أعتقد تمنعونها ما استطعتم ؛ ولست أرجعها فى الواقع إلا إلى الفوضى التى تسود فرقكم العسكرية من سوء نظامها . إنى لا أذكر مثل هذه الأمور فى هذا المجال لمجرد إظهار استهجانى لها ، لأن السؤال الذى يتردد فى نفسى دائماً عندما تتحدثون عن المدنية هو : أى نوع من الرجال أخرجت مدنيتكم للعالم ؟ وهذه الحوادث الأخيرة فى الصين لا توحى فيما يلوح بجواب شاف لمثل هذا السؤال ! ولكنى لا ألحّ فى طلب هذا الجواب ، فقد تكون المدنية

— مدنيتنا ومدنيتكم سواء بسواء — مجرد قشور ؛ وقد يكون الوحش كامناً فى أعماق الإنسان أبداً ، مستعداً دائماً لأن ينقض على فريسته متى فتحت له الأبواب بفضل تدبير محكم ، أو فرصة سانحة . إننا فى هذا مثلكم على كل حال ، يُحكم علينا بما يحكم عليكم به ، ومآخذنا ومعايبنا فى هذا كمآخذكم ومعايبكم ، ترتد إلى أفواه من يعددونها لأنها تنطبق عليهم هم أيضا . من أجل هذا أمرّ على مثل هذه المناظر من جيشكم مرّ الكرام ، لأقف أمام أحوال الحياة العادية . والآن أى الرجال نحن وأى الرجال أنتم حتى يحق لكم أن تصفونا بأننا همج متوحشون ؟ نعم ! أى الرجال نحن ؟ إنه لسؤال عسير علىّ أن أجيب عنه . وإنى لأُقلّبه فى رأسى ساعة بعد ساعة ، ويوماً بعد يوم ، فلا أجد وسيلة أستطيع بها أن أصور لكم شيئاً مما يدور فى خلدى حوله أجدى من أن أحاول أن أرسم لكم صورة — صورة أنقلها إليكم صادقاً أمينا ، فهى ما إنْ تزال تطاردنى وتملك علىّ نفسى وعقلى كلما سرت أيام الشتاء فى شوارع عاصمتكم السوداء المظلمة .

هناك في الشرق النائى البعيد حيث الشمس مشرقة إشراقاً لم تروه، فقد لطختم حتى هذا الإشراق القليل عندكم، ولوثتموه بالدخان ؛ هناك على ضفة النهر العريض يقوم البيت الذى فيه وُلدت . إنه بيت بين الآلاف من أمثاله ، ولكنها كلها تقوم وسط حدائقها الخاصة ، وكلها قد لونت فى بساطة بالأبيض أو الرمادى ، وكلها متواضعة بهجة نظيفة . ولأميال عديدة على طول الوادى الممتد ترتفع أسطح هذه المنازل ملونة بالأزرق أو الأحمر وسط بحر من الخضرة النضرة . بينما يلمع هنا أو هناك بريق الذهب الذى يكسو قباب معابدنا الطويلة من بين باقات من الشجر الأخضر . والنهر تخترقه القناطر العديدة وقد غص بالقوارب والزوارق ، يحمل على مجرى مائه الرائق الصافى حركة مرور نشطة من الأسواق الريفية على ضفتيه . فالفلاحون الموفقون المجدون يملأون المنطقة كلها . وهم يملكون الأرض التى يحرثونها ، تلك الأرض التى قد ملكها آباؤهم من قبلهم وحرثوها مثلهم . إنهم يستطيعون أن يقولوا إن الأرض التى يعملون عليها قد صنعوها هم بأيديهم . ولك أن تنظر إليها لتتبين

صدق قولهم . فهذه التلال المجدبة قد أصبحت كلها تتماوج من أسفلها إلى قممها بالخضرة النضرة ، بالقطن والأرز والقصب والبرتقال والشاى ؛ وهذا سفح الوادى قد ازدان بأحزمة فضية من ماء النهر يتساقط من قناة إلى قناة فى آلاف من الشلالات اللامعة البرّاقة ، ثم ينكسر فى الفناطيس ليقرقر فى القنوات ويغمر الأرض التى تمتصه حتى تنضر . وهكذا بالعدل والقسطاس وبلا ثمن ، يوزع على الأرض كلها الخصب والخضرة والحياة فى سخاء ووفرة . وإنك لترى فى كل ساعة وأنت تجتاز القناطر الصغيرة والطرق الملتوية المتعرجة آثار الأجيال التى خلت ، وإلى جانبها جهود أبنائهم من بعدهم إلى أن تصل إلى حيث يستسلم الإنسان عاجزاً أمام الطبيعة ، فتتجلى حرة لم يسيطر عليها أحد . وإذا المنحدرات قد كسيت كساءً ورديا ذهبياً لازورديا من الزهور المختلفة الأشكال والألوان ، زهور فنية قد نمت فى وفرة مفعمة بالحياة الفائرة .
كم جلست هناك وسط هذا السكون ، سكون بلغ من عمقه أنى كنت أستطيع أن أنصت فيه إلى حفيف ظل الشجر

وهو يتقلص على الأرض كما قال أحد شعرائنا ؛ سكون لا يشوبه إلا أصوات الفلاحين يتنادون من حين إلى حين عبر النهر ، أو صوت نواقيس المعابد يشع فى الوادى يدعو الناس إلى الصلاة فى الفجر أو الغروب . أى سكون وأى أصوات وأى عطر وأى ألوان ! إن الحواس لتحيا بكل هذا وتنعم به ، بل إنها لترقى بسببه إلى درجة لا يمكن لكم فى جوّكم الشمالى أن تتبينوها أو تدركوها . إن جمال الطبيعة حولنا يتسرب إلى أعماقنا فيشكل الروح والعقل بحيث ينسجمان معه .

فإن امتزنا نحن الصينيين بآدابنا وفنوننا وأخلاقنا فالسبب فى ذلك واضح لكل ذى عينين . إن الطبيعة حولنا هى التى علمتنا ؛ ونحن فى هذا أحسن منكم حظا . ولكن مما يعود الفضل فيه إلى ذكائنا وليس إلى حسن حظنا ، أننا كنا مستعدين لأن نتلقى عن الطبيعة درسها ؛ ذلك أنه فى هذا الوادى الجميل ، كما لا يخفى عليكم ، تعيش آلاف الأنفس لا يحكمهم دستور سوى التقاليد ، ولا يسيّرهم قانون سوى قانون الأسرة . إنهم صناع مهرة قد نشطوا فى صناعتهم ،

ولكنها الصناعة التى لا تكادون تعرفونها فى أوربا ؛ إنها صناعة الأحرار يعملون فيها لأهلهم ولذويهم ، يعملون فيها على الأرض التى ورثوها عن آبائهم ليسلموها إلى أبنائهم من بعدهم وقد أخصبوها بكدّهم ورووها بعرق جبينهم ، ولا مطمح لهم وراء ذلك . فلا يعنيهم أن يجمّعوا الثروة بحال من الأحوال . ولئن كان منهم فى كل جيل من يترك وطنه ليجوب العالم ، فقد كان يرحل عن الصين وملء صدره أمل لا يخيب فى أكثر الأحيان ، ذلك هو أمل العودة إلى وطنه حيث ولد ليقضى أعوامه الأخيرة بين المناظر التى أحبها فى شبابه ، والوجوه التى أعزها فى صباه . إنه لا مجال بين قوم كهؤلاء للمنافسات الحقيرة الحادة ؛ فلا سيد ولا مسود ، ولكن المساواة المجسمة الملموسة الحقة هى التى يعتمد الصينيون عليها فى معاملاتهم وهى التى تنظم الصلات بينهم . إن الكد الذى يفيد الجسم والروح ، والراحة الكافية ، والضيافة الكريمة ، والقناعة التى تدعمت بفضل العادة فى نفوس لا تؤرقها خيالات الأطماع والجشع ، والحس المرهف لكل ما هو جميل وقد أوحت به

أجمل طبيعة فى العالم ونعته ورعته فتجلى فى السلوك الجميل والمعاملة الرقيقة إن لم يكن قد وجد لنفسه منفسا بأن يتجسم فى صورة فن خالد ، إن هذه كلها لهى صفات قومى الذين ولدت بينهم. أتكون الذكرى قد حابتهم ؟ قد تكون . أيكون الخيال قد أضفى جماله على مراتع الصبا ؟ من يدرى ؟ ولكنى أوقن بشىء واحد ، ذلك أن حياة كتلك التى وصفتها ، حياة قامت على أساس العمل فى الأرض وبنيت على قواعد المساواة الحقة والعدل التام ، لتوجد فعلا فى الصين . بل إنها لتملأ الصين طولا وعرضاً فى ازدهار ونشاط . فماذا عندكم ياهؤلاء الذين تريدون أن تمدنونا تستطيعون أن تقدموه إلينا عوضا عن هذه الحياة؟ أدينكم ؟ واحسرتاه ! إنه باسم هذا الدين قد ارتكبتم ما لا يستطاع وصفه . أ أخلاقكم ؟ تُرى أين نجدها ؟ نعم أين أخلاقكم تلك ؟ أذكاؤكم ؟ وإلى أين قادكم ؟ أين منكم فى إنجلترا صورة تقدمونها لنقارن بينها وبين ما رسمتُ لكم من الصين ؟

هذا هو السؤال الذى سأحاول أن أجيب عنه .

الرسالة الرابعة

لقد اخترت أن أصور جماعة من الفلاحين ، حينما حاولت أن أرسم لكم صورة حقة من الحياة فى الصين ، لأنى أجد فى مثل تلك الجماعة المثل الصادق الأمين لأثر مدنيتنا فينا . إن فى الصين مدناً ولاشك ، مدناً مخيفة لا تقل وحشية عن مدنكم أنتم فى إنجلترا . ولكنها عندنا مجرد طفيليات تنمو على جسم الدولة ، والدولة لا يزال كيانها الأصلى زراعياً محضاً . والحال عندكم فى هذا تخالف ما عندنا كل المخالفة ، فليس عندكم ما يستحق أن يسمى حياة ريفية . كل ما عندكم مساحات واسعة من الأرض المهملة وعدد وفير من المستنقعات من جهة ؛ ومن جهة أخرى قصور وحدائق وعمال رثة ثيابهم حقير مأواهم بائس أجرهم . ثم قرى حزينة ومزارع فى طريق الاضمحلال والفناء ، وحقارة وبلًى ، وشر وقسوة . هـذه هى الصورة التى ترسمونها أنتم لمناطقكم الريفية . كل شىء ليس من المدينة فى إنجلترا لا مفر له

من أحد أمرين : إما أن يعيش طفيلياً على حياة المدن ، وإما أن يقف على حافة الموت السحيق . فإذا كنت أريد أن أرسم صورة عادلة منزهة عن الأغراض لما أتت به مدنيتكم من ثمار ، فلا بد لى من أن أشيح بوجهى عن حياة الريف عندكم لأوليه شطر حياة المدن . فإذا ما فعلت ذلك فأنا لا أسارع بإحراز نصر سريع هيّن بأن أقف مغرضاً أمام هذه المظاهر من مدنكم التى لا تقلّون عنى تسليما بشرها بل استحياءًا منها . إن هذه الأحياء الفقيرة الغاصة بالبؤساء وحانات الخمر وملاجئ الفقراء والسجون ، إنها كلها لحقائق مرة بلا شك . ولكنكم قد أقمتم أنفسكم لمحاربة هذا الشر الذى تمثله تلك المظاهر فى مدنكم ؛ ولست أشك فى أن جهودكم فى هذا المضمار يمكن أن تكلل بغير قليل من النجاح . وما دام الأمر كذلك فإنى أفضّل أن أعالج هنا فيما أرسمه من مدنيتكم هذا الهدف الذى تسيرون إليه ، فيما يبدو ، عند ما تكونون قد قمتم بخير ما يمكن أن تقوموا به من جهود . هذه الثمرة الصادقة لمدنيتكم ؛ هذا الرجل المتوسط العادى الذى تعدّونه محترماً ، إنه هو الذى أريد أن أرسم وأن

أصف ، فهو وحده النتيجة الطبيعية المحتومة لأثر مدنيتكم فيكم .
أى الرجال هو إذن ؟ كم أتردد وأنا أحمل نفسى على أن تجيب
عن هذا السؤال . فأنا غريب بينكم قد نعمت بكرمكم ،
وإنى لأحجم عن أن أكافئ معروفكم بالجحود وقلة الذوق .
ولكنى أقدر فى الوقت نفسه أنه إذا كان هناك ما يمكن أن
أخدمكم به ، فإنى لا أرى شيئاً أقوَم من أن أردكم إلى بعض
الحقائق . حقائق هامة جدًّا فيما يبدو لى ، ولكنكم قد تعاميتم
عنها تعامياً شاذًا فريداً . إن أقدامكم على حافة طريق ضالة
وأرانى مضطراً لأن أحذركم منها . ولئن كان تحذيرى لكم
لا جدوى فيه ، فما يمنعنى هذا من أن أقدمه بروح الصداقة ،
بل ما يمنعنى هذا من أن أرجو أن تتقبلوه منى بنفس هذا الروح .

ترى ماذا أرى وأنا أحاول أن أتبين الأثر الذى تركه فى
نفسى هذا الرجل الإنجليزى العادى ، وإنه لأثر يعتمد على دراسة
سنوات عديدة قضيتها بينكم . إنى لأرى رجلاً قد جفا الطبيعة
بخفته ، ولم ينقذه بعد ذلك الفن ؛ رجلا متعلماً ولكنه ليس
مثقفاً ولا مهذباً ؛ لديه استعداد قوى لأن يتلقى ، ولكنه عاجز

عن أن يفكر ؛ قد ربى على مبادئ دين لا يؤمن به فى الواقع ، لأنه يراه معارَضاً على طول الخط فى كل علاقات الحياة من حوله ؛ وهو يشعر شعوراً خفياً أنه من الحيطة والتعقل أن يخفى إلحاده ، فليس عنده من الذكاء ما يسمح له بأن يعلنه تحت قناع من التدين . إن دينه مجرد تقاليد ، وأخطر من ذلك أن أخلاقه هى الأخرى لا تقل عن دينه فى كونها هى أيضاً مجرد تقاليد . فالإحسان ، والطهارة ، وإنكار الذات ، وتحقير الدنيا والزهد فى ملاذها ، كل هذه كلمات يتغذى عليها منذ طفولته ، ولقد ظلت كل هذه الصفات مجرد كلمات فى حياته ، لأنه لم ير حوله أحداً يعمل بها ، ولم يدر بخلده قط أن يعمل بها هو نفسه . فإن قويت هذه الكلمات على أن تجعل منه مرائياً مزمناً فى الرياء ، فإنها لم تقو بعد على أن تبين له صورة هذا المرائى الذى قد صار إليه فعلاً بفضلها . وبينما يرى نفسه محروماً من سند دستور خلقى حق. يتجلى فى حياة الجماعة التى هو عضو فيها ، نراه قد خدع بعبادة زائفة لمثل أعلى خائر ضعيف . ولما كان قد تُرك تركاً نهائياً لغرائزه تسيّره كيف شاءت ، فإنه قد قنع بأن يسير

حياته كما يسير الذين حوله من الآخرين ، وأن يكرس نفسه للغايات المادية بعد أن أغفل الروح فى حياته ، وبذلك أصبح مجرد أداة ؛ ومن مثل هذه الأدوات يتكون مجتمعكم .

هذه آثاركم تدل عليكم ، فإن انتصاراتكم فى الفنون الآلية ما هى فى حقيقة الأمر إلا الظاهر الذى تسترون به فشلكم فى كل ما يتطلب الحواس الروحية لإدراكه . إنكم تستطيعون أن تصنعوا الآلات من أى نوع كانت ، وأن تستعملوها بفن قد بلغ حدّ الكمال ، ولكنكم عاجزون عن أن تبنوا بيتاً ، أو تؤلفوا قصيدة ، أو ترسموا صورة ؛ بل إنكم عاجزون عن أن تتعبدوا فى حرارة ، أو تتطلعوا فى شوق . وهذه هى شوارعكم ، إنها صفوف وصفوف من صناديق صغيرة متراصة مكدسة لا يفترق كل منها عن الآخر فى شىء ، ينقصها كل ما هو أساسى ، بينما قد أثقلت بكل ما هو كمالىّ تافه . هذا هو ما تسمّونه عندكم فن العمارة . أما أدبكم فهو الجرائد اليومية بسيلها المتدفق من التفاهات الجامدة والحوادث والألغاز والنكات وفضائح البوليس . وأما السينما فهى مجرد قصص ملون لكل

ما هو مبتذل وقد أصلح بعض الهواة من شأنه كيفما اتفق ، فافتقر إلى العبقرية افتقاره إلى السنن الفنية . إن حواسكم الظاهرة كحواسكم الباطنة قد خمدت وماتت ، فأنتم لا تبصرون ولا تسمعون . إن المنطق قد ألغى كل ما لديكم من تفهّم وبصيرة ، وأصبحت حياتكم كلها استقراءاً ومنطقاً أبدياً لا ينتهى ، ولكنه منطق يعتمد على مقدمات لم تتبينوها ولم تمحصوها ، وهو يقود أيضاً إلى نتائج لم تريدوها ولم تتوقعوها . وهكذا فى كل شىء وفى كل ناحية ، لا نرى عندكم إلا الوسائل ، أما الغايات فإنا لا نراها أبداً ؛ والمجتمع نفسه آلة ضخمة ولكنها آلة مختلة معطلة .

هذه هى الصورة التى تتراءى لخيالى عن مدنيتكم . ولست أزعم أنها هكذا تبدو لكل صينى فطن . فالصينيون على العكس منكم ، قد ركبت طبائعهم بحيث يعجزون عن أن يهاجموا غيرهم . فإذا كنت قد انزلقت إلى هذا الزلل فما كان ذلك منى إلا من أثر استثارتكم القوية لنا . ومع ذلك فإنى أحس منذ الآن أنى مدين بالاعتذار إليكم ؛ ولكنى

لا أستطيع أن أنكر كلمـة واحدة مما قلت . وما أحسبنى نادماً على شىء مما فعلت ، إذا كانت كلماتى قد أوحت ، وهل لى أن آمل ذلك ، إلى بعض قرأئى معنى جديداً للصيحة التى يسمعونها : « الصين للصينيين » .

الرسالة الخامسة

كان أقوى ما أثر فىّ وأسرعه عند ما بدأ اتصالى بالغرب هو طبيعة ذكائكم ومستواه ؛ فقد ظهر لى كيف استطاعت عقولكم فى نجاح أن تتعرض لمسائل ومشاكل ما كانت لتدور بخلدنا نحن فى الشرق . لقد وصلتم بالتجربة حيناً ، وبالتحليل حيناً آخر ، إلى معرفة أسرار تفاعل القوى الطبيعية ، ثم استخدمتم هذه القوى بطرق بدت لخيالى الغرّ أنها تكاد تكون معجزة . ولم ينقص الاعتياد شيئاً من إعجابى بما وصلتم إليه فى هذا المضمار ، فأنا أدرك كل الإدراك أن هذا أهم ما يخوّل لكم ادعاء الأفضلية علينا ؛ بل إنى لست أعجب أن أجد من بين خيرة أذكيائنا من يحبذ فى حرارة ، بل من يدافع فى حماس ، عن إدخال هذه الأساليب الغربية حالاً فى الصين . وإن كنت أشعر بما يشعر به هؤلاء المصلحون من تحمس للصالح العام ورغبة فى الخير ، فإنى فى الوقت نفسه

عاجز عن أن أؤيد سياستهم تلك . ولعله من الأفضل أن أبين هنا الأسباب التى قادتنى إلى هذه النتيجة ، فهى نتيجة تلوح لأول نظرة أنها متناقضة .

وأبادر فأعترف بأن وجهة نظرى الأولى قد تغيرت بدراسة تاريخكم طوال القرن الأخير ، وبالتعرف القريب ببناء مجتمعكم. إن هذه الدراسة وهذا التعرف قد علمانى أن أبرع الاختراعات وخير الوسائل فى استخدام العبقرية المخترعة لا تكفيان وحدهما فى صلاح المجتمع. إن ذكاءنا قد ركّز تركيزاً خالصاً لإنتاج آلات توفر على الإنسان جهده ، قد يقود ، بما يقلقل فى النظام الصناعى ، إلى الشر أكثر مما يقود ، بما ينميه من ثروة ، إلى الخير. لأن نماء الثروة أو توفر أسباب الراحة ليس فيما أرى خيراً خالصاً فى نفسه . إن الأمر كله يتوقف على طريقة توزيع الثروة ، وعلى ما يترتب عليها من آثار فى كيان الأمة الخلقى . وهذا هو الاعتبار الذى يجعلنى آسى وأتألم كلما نظرت إلى مشروع إدخال النظم الغربية فى الصين . وهاكم مثلا يوضح لكم وجهة نظرى خير إيضاح . لقد رأينا عند ما بدأنا إنشاء

أول سكة حديدية فى الصين تصل بين تيتسن وپيكين ، أن المشروع قد أثار فى أهل المنطقة مقاومة سرعان ما تطورت إلى هياج وثورة ؛ وكُسّر الخط وهُدمت الجسور ، وأصبح الاستمرار فى العمل مستحيلا . فلم نبعث إلى الثوّار بقوة من الشرط تحافظ على الأمن ، وإنما أرسلنا إلى المنطقة ، حسب تقاليدنا فى الصين ، موظفاً ليتفاهم مع الثوار أنفسهم ويتبين وجهة نظرهم . وكانت وجهة نظرهم كما هى الحال دائماً فى مثل هذه الظروف سليمة معقولة . إنهم قوم يكسبون عيشهم من الملاحة النهرية ، فهالهم أن الخط الحديدى سيحرمهم من الوسيلة التى يحصلون بها على قوتهم . وأدركت الحكومة فى الحال عدالة مطلبهم ، وقدمت إليهم الضمانات الكافية ألا تتأثر ملاحتهم النهرية أى أثر سيىء من هذا المشروع . وبهذا انتهى الشر والاضطراب والقلق . إن هذا الحادث وحده لمثل طيب لتبيان الأسلوب الذى نعالج به مثل هذه المشاكل فى الصين . أما الإنجليز الذين رويت لهم هذا الحادث فإنهم، جميعاً دون أى استثناء ، قد أنصتوا إليه وعوامل الدهشة حيناً ، والحنق حيناً

آخر تتناوبهم ؛ فلقد بدا لهم مريعاً فظيعاً أن تعير الحكومة
مثل هذه المظاهر من الشعب أى التفات . إنهم لا يتكلمون
إلا فى قانون العرض والطلب وفى مسألة استنفاذ الإنتاج
استنفاذاً كاملا وفى المنافسة والتقدم والحركة وطول المدى ؛
وإنى لأنصت إلى كلامهم هذا فى شىء قل أو كثر من الفهم
والموافقة . ولكن ما من شىء من كل هذا يمنعنى من أن أرى ،
بل من ألا أزال أرى ، الحقيقة . إن اتباع هذه الأساليب الغربية
الحديثة فى الحياة معناه ، إلى الآن على الأقل ، مقدارٌ ما من
التقلقل فى الصناعة ومقدار غير قليل من الفقر والعذاب والتضور
جوعاً . وتاريخكم الصناعى نفسه ملىء بالبراهين على ما أقول.
ولست أملك إلا أن ألحظ والأسى يملؤنى وخيبة الأمل تغمرنى،
أنكم طوال هـذه السنوات التى قضيتموها كلها فى محاولة
إتقان فنونكم الآلية ، لم تستطيعوا ، بل إنكم حتى لم تحاولوا ،
والذى لا شك فيه أنكم لم تحاولوا فى نجاح ، أن تخترعوا أية
وسيلة لتمحوا الاضطراب والشقاء والتعاسة التى ابتليتم بها
جمهور العمال من قومكم . وليس فى هذا ما يثير العجب فى

الواقع . فمن عادتكم دائماً أن تجعلوا الحياة فى المرتبة الثانية بعد الثراء. ولكن ليس فى هذا ، فى الوقت نفسه، ما يشجع الرجل الصينى على أن يقدم على اتباع أساليبكم تلك . وأنا على الأقل لا أستطيع أن أتأمل هذا إلا وأنا مدرك كل الإدراك شر هذه الاضطرابات التى ستنتج حتما ، وستقع فعلا فى شعبنا المؤلف من أربعمائة مليون نسمة ، من جرّاء تعميم الأساليب الصناعية الغربية بيننا . ستقولون إن الاضطراب موقوت ، ولكن يبدو لى أنه مزمن عندكم فى الغرب. فإذا تركنا هذا جانباً ، فهل لكم أن تأذنوا لى بسؤالكم عما إذا كنا سنكون نحن الفائزين ؟ أما بالنسبة إليكم فالفوز ظاهر ملموس ، وكذلك ستكون الخسارة بالنسبة إلينا . ثم ما هذا الذى سنجنيه بالفعل ؟ إنه لسؤال سخيف فيما يبدو لكم ، ولكن اغفروا لصينى أن يراه هاماً . ستجيبون أننا سنجنى ولا شك ثراءاً . وقد يكون ذلك حقاً . ولكن ألسنا سنفقد فى سبيله الحياة، ألسنا سنصبح مثلكم ؟ وهل تنتظرون منا أن نتطلع إلى مثل هذا المستقبل فى سكون بارد واطمئنان هادئ ؟ ما هى ميزاتكم ألا تخبرونى ؟

إن قومكم قد تيسرت لهم ولا شك بعض خيرات الحياة الثانوية ، إنهم يأكلون أكثر منا ، وكذلك يشربون وينامون . وإلى هنا ينتهي امتيازهم . ولكنهم أقل منا بهجةً وقناعةً ونشاطاً ولِيناً ؛ أما عملهم فأبعد ما يكون عن أن يلائم الصحة، صحة الجسم والعقل معاً . إنهم محتشدون فى المدن والمصانع ، وقد طلقوا الطبيعة وحرموا متعة امتلاك الأرض . لقد قررت ذلك من قبل وأوضحته ، ولكنى أعود إليه هنا لأفسر لكم موقفاً قد يبدو متناقضاً ، موقف هذا الذى يعجب إعجاباً فذاً بما وصل إليه الذكاء الأوربى ، ولكنه يشك فى الوقت نفسه فيما إذا كان هذا الذكاء قد استخدم خير استخدام . بل إنه ليتساءل على الأقل : أليس هذا الذكاء مقصوراً على ناحية بعينها قاصراً فيما عداها ، بحيث أصبح أهلا لأن يأتى بشر يوازى ما قد أتى به من خير ؟ قد تصلون ، وهذا ما أومن أنكم ستفعلون ، إلى إصلاح هذه الحال ، فتبرهنون أنكم أهل لأن تنظموا حياة الإنسان بنفس العبقرية التى نظمتم بها قوى الطبيعة وسيطرتم عليها . ولكن ، إلى أن يحين ذلك الوقت أرى ، فيما أظن ،

أننا معذورون فى أن نتردد فى اتباع أساليبكم الغربية وإن كنا نعجب بها كل الإعجاب . بل إنا لمعذورون فى أن نشعر أن المزايا التى يمكن أن نصل إليها من هذا السبيل سندفع ثمنها هذا الاضطراب الذى صاحب أساليبكم أينما اتبعت .

وهناك مسألة أخرى تشغل تفكيرى ، إن تكن أقل اتضاحاً فهى ليست أقل خطراً . لا بد فى كل مجتمع من أن ينهمك مجموع الناس فيه فى الأعمال الآلية . ومجتمعنا فى هذا لا يقل عن مجتمعكم ، وهو بلا شك لا يزيد عنه ، ولست أرى إلى الآن أن أى تغيير قد طرأ على هذه الحال بتدخل الآلة فى المجتمع . ولكن فى الوقت نفسه يجب أن يوجد فى كل مجتمع جماعة من الرجال قد أعفوا من هذا العمل الآلى ليكونوا أحراراً فى أن يكرسوا أنفسهم لغايات أرقى وأرفع . ولقد وجدت فى الصين لقرون طويلة خلت تلك الطبقة من الرجال التى أفرد أهلها منذ أول الأمر بمتابعة دراسة الفنون الحرّة وقد قدّر لهم أن يشغلوا وظائف الحكومة . إن هؤلاء الرجال لا يكوّنون فى الصين طبقة ممتازة بعينها

تتوارث هذه الوظائف الحكومية ، بل إن الميدان عندنا مفتوح لكل صينى أيًّا كان ما دام قد امتاز بالمواهب المطلوبة والميول اللازمة . وإنى لأرى أن مجتمعنا فى هذا منذ القدم أوفر مجتمعات العالم ديمقراطية حقة . وأنتم تعلقون على نظام التعليم الذى تتبعه تلك الطبقة عندنا تعليقات عديدة ، وتنتقدونه انتقادات شتى . ولست أريد أن أدافع عن هذا النظام هنا . وكل ما أريد تبيانه هو حقيقة واحدة بعينها ؛ إنه بفضل هذا النظام قد دفعنا قومنا من كل الطبقات إلى احترام كل ما يتصل بالعقل والروح ، بل لقد استطعنا أن نحافظ على احترامهم هذا . وإنه لمن الصعب أن نجد لمثل هذا الاحترام شبيهاً فى أوربا ، بل إنا لا نكاد نجد له أثراً فى إنجلترا خاصة . وإن الآداب والفنون لتحترم فى الصين احتراماً يبدو لكم ، لا من حيث الكمّ فحسب ولكن من حيث الكيف أيضاً أنه غير معقول، بل أنه مبالغ فيه على الأقل . وإن لذلك سبباً .فلقد علّم شعراؤنا وأدباؤنا أبناءهم لقرون طويلة أن يبحثوا عن الخير لا فى الثروة ولا فى السلطان ولا فى تنوع الحركة وكثرتها ، ولكن فى تقدير

أبسط علاقات الحياة وأكثرها شيوعاً بين الناس تقديراً راقياً ممتازاً دقيقاً .

وإنه لغاية فى نفسها أى غاية أن نشعر ولكى نشعر حقاً أن نعبر ، أو على الأقل أن نفهم تعبير كل ما هو جميل فى الطبيعة وكل ما هو صارخ أو رقيق من الإحساسات البشرية . إن الزهرة فى الحديقة المقمرة ، وظلال الأشجار على العشب ، وزهر اللوز وقد تفتح ، وعبير الأرز وسحر الخمر والقيثار ، إن هذه كلها ، وغمْرة الحياة والموت ، والضمة الطويلة الحارة ، واليد التى تمتد فى الفضاء إلى ما لا تستطيع أن تصل إليه ، واللحظة التى تمر بما حملت معها من نغم ونور فتتلاشى فى أطياف الماضى السحيق ، إن كل ما ندرك وما لا نستطيع أن ندرك من رفرفة الطائر أو عطر النسيم ، كل هذا قد تعوّدنا فى الصين أن تهتز له مشاعرنا بل قد ربينا على أن نستجيب له . واستجابتنا تلك هى ما نسميه أدباً .

إننا لننعم بكل هذا ، وأنتم لا تملكون أن تعطونا شيئاً منه ؛ ولكنكم ، واحسرتاه ، تستطيعون فى يسر أن تحرمونا

منـه ! إن ضجيج الأنوال والعجلات ليخرس كل هذا الجمال ، ودخان المصانع يحجبه ، والحياة الغربية فى اندفاعها الجنونى تقتله .

وعند ما أتأمل رجال الأعمال منكم ، هؤلاء الذين تعجبون بهم أيما إعجاب ، عند ما أراهم والكد يطحنهم طحناً ساعة بعد ساعة ، ويوماً بعد يوم ، بل عاماً بعد عام ، وهم غرقون فى عمل قد فرض عليهم فرضاً ، فلا هو يسعدهم ولا هو يفرحهم ؛ عند ما أراهم يحملون هموم اليوم معهم إلى ساعات راحتهم الشحيحة القصيرة ، وهم يفنون لا من الجهد والكدّ ولكن من الهموم الثقيلة الحقيرة ؛ عندئذ أنظر بعين يملؤها الرضا إلى العمل الآلى البسيط الذى تفرضه علينا صناعتنا . عندئذ يرتفع فى نظرى درجات قدر تلك الطريق الممهدة التى ألفتها أقدامنا من كثرة ما اعتادت السير فيها ، ويظهر لى فضلها على طرقكم الحديثة الخطرة ، إنها تتيح لنا ونحن نجتاز مشاقها فرصة لأن نرفع من أبصارنا نحو السماء فنرى نجومها الأزلية .

الرسالة السادسة

ليس بين النظم الصينية ما يدفع العقل الأوربى إلى انتقاد ملؤه العداء والازدراء قدر ما يدفعه نظام حكومتنا . فالمرتبات الضئيلة التى يتقاضاها موظفو الدولة عندنا وما يتعرضون له بسبب ذلك من إغراء لابتزاز الأموال بطرق غير شريفة ، بل ما يتعرضون له من استجابة لهذا الإغراء مراراً لما يخلق طائفة من من المضايقات والمتاعب للأجانب بيننا . وليس لدىّ ما أدافع به عن نظام معيب بيِّن الفساد كهذا . ولكنى فى الوقت نفسه لا أملك إلا أن أقرر أن مثل هذا الفساد يقود عندنا فى الصين إلى شر أقل خطراً مما كان يقود إليه لو كان عندكم . ذلك أن مهمة الحكومة لديكم هامة خطيرة . تلمس كل شىء وتتدخل فى كل صغيرة وكبيرة من حياتكم . حتى أصبح من الصعب عليكم أن تتصوروا قوماً يستطيعون الاستغناء عنها استغناءً يكاد يكون تاماً . ومع ذلك فتلك هى حالنا . إن مدنيتنا

الفطرية الساذجة ، وطبيعة قومنا الهادئة المسالمة حينما لا يثارون باعتداءات الأجانب عليهم ؛ وأول كل شيء ، وقبل كل شيء ، نظام الأسرة الصينية ، وهى فى نفسها دولة صغيرة لها كيانها ووحدتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ؛ هذه كلها وحقائق أخرى توفرت لدينا ، قد جعلتنا نحن الصينيين محررين من السلطة الحكومية تحرراً يبدو لكم أنتم الأوربيين أنه مستحيل لا يُصدق . وإنه لسواء لدينا أنفذت السلطات فى بيكين القانون أم عطلته ، فإن شيئاً من هذا لن يؤثر فى حياة الجماعة الصينية أى أثر فعلى أو دائم ، إلاّ بمقدار ما تصور هذه التصرفات من عواطف الشعب ، وبمقدار ما تعبر به عن مطالبه . وفيما عدا ذلك فالقانون عندنا حبر على ورق كما قد تعلمون ، بل كما قد دفعتم الثمن فى سبيل أن تعلموا أيها الأجانب . إن للحكومة أن تبرم من المعاهدات ما شاءت ، وأن تعقد من الاتفاقات ما يحلو لها ، ولكنها لا تستطيع أن تنفذ شيئاً مما أبرمت أو عقدت إلاَّ بمقدار ما يدعمها فى تنفيذه الرأى العام . إن المقاومة السلبية من شعب عديد هذا العدد ، هذه المقاومة

المتأصلة فى تقاليد عتيقة قديمة أى قدم ، ستقهر فى المستقبل كما قد قهرت فى الماضى ، محاولات السلطات الغربية أن تفرض أمرها وإرادتها على الأمة عن طريق الحكومة . إن قوة مهما بلغت من العظمة والشدة لا يمكن لها أن تحرك شيئاً من هذا الجمود الشامل الصامد من شعب الصين . قد تستطيع عواصف الحرب أن تحرك من صفحة الماء فتضطرب حيناً ، وقد توشى الأمواج السطحية بشىء من الزبد ، ولكن شيئاً مهما يكن لن يستطيع أن يمس الأعماق اللانهائية الصافية من روح الصين الساكن المتأمل الحزين . إنه إذا أريد من قومنا أن يتحركوا فلا بد أن تقتنع عقولهم ، وتؤمن قلوبهم ، بما يتحركون من أجله . هذه هى الحقيقة التى أبطأتم كثيراً جداً فى فهمها أيها الأوربيون . هذه هى الحقيقة التى يقوم عليها كيان دولتنا فكرة وتنفيذاً منذ قرون خلت .

إن الحكومة عندنا تعتمد على إرادة الشعب اعتماداً من الصعب عليكم أنتم الغربيين أن تفهموه ، بله تقلدوه . إن هذا الذى سعيتم عبثاً فى الوصول إليه عن طريق أداة الحكم التى

تزداد على مرّ الأيام إتقاناً ليحدث عندنا نحن بمجرد قوة الواقع والحقيقة . وليست أنظمتنا الأساسية اختراعات تعسفية للسلطة والقوّة ، إنها الأشكال النهائية التى تعبر عما وصلت إليه حياة الشعب نفسها من تطور أو ثبات . إنها هى التى خلقت نفسها ، ولا يدور بخلد حكومة أن تحور فيها شيئاً . وإذا كان يُرغب بين آونة وأخرى فى زيادة بعض قوانين توحى بها الحوادث والأحوال ، فإن هذه الزيادات أيضاً لا تزاد إلا لأنها صدى لرغبة شعبية حقة . بل إنها لا تزاد إلا بعد أن تكون قد مرّت بالتجربة التى أثبتت صلاحيتها وملاءمتها لميول الشعب ومطالبه .

وخلاصة القول أن القانون عندنا ليس أمراً أو قاعدة تملى علينا من علٍ ، ولكنه تعبير عن الحياة القومية الواقعية . وأن تمثله فى العمل به وسريانه ، لأسبق من صياغته فى صورة مواد يتكون منها القانون . وهذا يفسر لكم تلك الحقيقة ، وهى أن الحكومة فى الصين ليست عسفاً من جهة ، وهى ليست ضرورة من جهة أخرى . أمح السلطات مركزية أو عامة فى

الصين فسترى أن الحياة تسير على ما كانت عليه لا تكاد تحس أنها قد تغيرت فى شىء .

إن القانون الذى نخضع له ونسير عليه هو قانون طبيعتنا الذى دعمته قرون طويلة من التجارب . ولهذا القانون وحده سنظل موالين كل الولاء حتى ولو فقد صبغته الرسمية وتجرد من تصديق السلطات عليه . وليحدث ما يحدث، إن نظام الأسرة الصينية بكل ما ينطوى عليه باق لن يتغير . وإن طريقة التفكير هى هى، بل إن روح الصين ونظامها ونشاطها وحرص أهلها وكل هذه الصفات التى تكوّن الصينيين حقاً ستظل كما هى . والحكومات التى قابلناها فى هدوء ستظل حكومات ما دامت تفهم أنه ليس من شأنها أن تحكم، بل ما دامت تفهم أن مهمتها تنحصر فى أنها تعبر بشكل ظاهر عن نظام لا بد لها من أن تقبله كما هو، وأن تعترف بعدم إمكانها التأثير فيه، كما تعترف بذلك إزاء حركة السماوات والأفلاك . إن الصين لن تتغير . وإن هذا الهياج الذى تكبرون من شأنه والذى أحدثتموه أنتم وكنتم كل السبب فى وجوده ليس من أمارات انقضاء

مدنيتنا كما تتوهمون . إنكم فى الواقع لتسمعون زئير الأمواج المتلاطمة على الشاطئ ولكن هناك بعيداً جداً عن مدى أبصاركم ، بعيداً جداً حيث لم تقو مراكبكم بعد على أن تصل ، تمتد الرحب الواسعة من البحر فى الأفق اللازوردى ساكنة هادئة لم تتحرك .

لكم تختلف فكرة الحكومة عندكم فى الغرب ، بل لكم يختلف واقعها . ليس عندكم فى الواقع قوانين ثابتة أساسية وكل ما عندكم قواعد تعسفية لا نهاية لها . لا شىء يمكن أن يكون له جذور إلا ما قد زرع بالفعل ولا شىء يزرع إلا ما كان يجب أن يزرع . لقد انتزعتم كيان مجتمعكم انتزاعاً كاملا فى السنوات المئة الأخيرة وجردتموه من كل ما يمكن أن يدافع به عن نفسه . فالملكية والزواج والدين والأخلاق والتفرقة بين الطبقات وكل ما هو خطير جداً وعميق الأثر جداً فى العلاقات الإنسانية قد انتزعتموه من جذوره ، وتركتموه يطفو كبقايا السفين على نهر الزمن . ومن هذا استمدت حكوماتكم قوتها وحيويتها .

فبالحكومة وحدها يستطيع مجتمعكم أن يتماسك ويكون له كيان . لذلك أصبحت الحكومة عندكم خطيرة هامة قد وصلت خطورتها والحاجة إليها إلى مدى لا نستطيع نحن ، لحسن الحظ ، أن نتصوره فى الشرق . وهذا فى حد ذاته شر فيما يبدو لى ولكنه شر لا بد منه . ولكم يزداد عجبي حينما أتأمل عجز هذه الأداة الحكومية عندكم عن القيام بهذا العمل الجسيم الجليل الذى ألقيتموه على عاتقها . وإنه لعجز فريد عجيب . إنه لا يغرب عن بالى إنه من الصعب ، بل إنه ليبدو من المستحيل أحياناً ، أن تكتشف طريقة مؤكدة مضمونة لا تخطئ فى اختيار الأكفاء لتسيير الأداة الحكومية . ولكن الشاذ والأعجب ألا تعمل أية محاوله وألا يقام بأى مجهود فى سبيل قياس القدرة الخلقية والعقلية فى هؤلاء الذين تعهدون إليهم بمثل هذه الأعمال الخطيرة الجسيمة وتحملونهم مثل هذه الأعباء الثقال . إن طريقة الامتحانات والمسابقات التى نختار بها حكامنا فى الصين لا تروقكم وإنكم لتنظرون إليها بشىء من الإزدراء قد تستحقه ، ولكنكم فى الوقت نفسه تعملون بها فى

اختيار صغار الموظفين . وإن لهذه الطريقة الفضل على الأقل
فى أنها تحقق الفكرة المعقولة المسلم بها ، وهى أن أعلى مراكز
الدولة وأسمى مناصب الحكم يجب أن تفتح أبوابها للجميع
لا فرق بين ثرى أو فقير ما دامت قد توفرت فيه شروط
الكفاية والقدرة المطلوبة ، بل إنها يجب ألا تفتح لغير هؤلاء .
وإذا قارنا هذه الطريقة على مافيها من عيب بطريقتكم ، طريقة
الانتخاب، التى تتبعونها فإنها تبدو لى على أنها العقل كل العقل .
فما هو الانتخاب فى حقيقة الأمر وماذا يدل عليه . إنكم
تقولون بألسنتكم إن معناه تمثيل الشعب . ولكن أمام ضمائركم
لا يمكنكم أن تقروا شيئاً من هذا . وإنكم لتعترفون بينكم وبين
أنفسكم أنه لا يدل ، بل إنه لا يمكن أن يدل ، على شىء من
هذا . فالذى يمثل فعلا بالانتخاب هو مطامع الأحزاب . وبم
تُعنى هذه المطامع؟ إنى أرتاب فى أنكم ستقولون الحق. إنها تعنى
بالسباب والشتائم العلنية . أليسوا هم ملاك الأرض وتجار الخمور
وأصحاب شركات السكك الحديدية هم الذين يحكمونكم فى الواقع .
أوليست هذه الحال محتومة عليكم ما دام مجتمعكم قد

قام على هذا النحو . وإنى لأعرف أن من بين أحزابكم
حزباً يريد أن يثير الناس ضد سلطان الكثرة ، هذا السلطان
الوحشى الجارف ، ولكن مثل هذا العلاج ، حتى لو سلمنا بأن
تنفيذه مستطاع ، لا يبدو لى أنه علاج ناجع . لأن الكثرة فى
حد ذاتها مطمع من مطامعكم. إن الآلة التى أعددتموها ترمى فيما
يبدو لى إلى هدف واحد هو أن تجمعوا فى ساحة قتال بعينها
كل القوى الأنانية ، التى لا تعكف إلا على مصلحتها الخاصة،
لكى تصل بمجرد المحاربة والقتال إلى نتيجة تمثل صالح الجماعة.
وإنه الاحترام المتأصل فى طبيعة الصينى نحو سلطان الأخلاق
والعقل هو الذى يمنعنى من أن أقابل مثل هذا الإجراء بالحماس بل
بالاحتمال الذى تقابلونه أنتم به . وعندما تلقى مثل هذه التبعات،
التى لها أكبر الخطر فى حياتكم ، على عاتق الحكومة وعندما
تضطر الحكومة لأن تضطلع بها ، لا أفهم كيف يمكن
السكوت عن السعى وراء اكتشاف طريق تتوصلون بها إلى
شحذ أفضل القرائح وخير الرجال فى الأمة للعمل فى حل مثل
هذه المشاكل والقيام بمثل هذه التبعات . لقد صادقت فى

جامعاتكم قوماً درسوا ما يجب على مجلس تشريعكم أن يفصل فيه ، بل تعمقوا فى درسه ، قوماً قد صفت أذهانهم واتزنت أحكامهم وبرئ حماسهم من الغرض والهوى ولكن أنى لهم أن يطمعوا فى أن تتاح لهم فرصة يعملون فيها ذكاءهم فيما يفيد أمتهم ! إن مزاجهم وطبيعتهم وتربيتهم وما اعتادوه من حياة يأبى عليهم أن يجتازوا محنة الانتخابات العامة . فعضوية البرلمان فيما يلوح مهنة فى حد نفسها . والمميزات الخلقية والعقلية التى تفتح الأبواب أمام مهنة عامة تتميز فيما يظهر كل التميز من هذه المميزات التى تقود إلى خير المجتمع ، بل إنها لتتعارض معها .

الرسالة السابعة

إن للميزات الخطيرة الأساسية في كيان أمة وحياتها ، ما يماثلها في عقيدتها الدينية . فالدين الروح ، أو يجب أن يكون الروح ، من جسد الدولة . إنه الفكرة الأساسية التي تبنى في ظلها النظم ، وتستمد منها قوّة على الدوام والخلود . وإني لمقدر أن كلمة الدين لا تفهم على هذا النحو في كثير من الأحيان. لأن الدين ، في أية أمة من الأمم ، قلما يكون في الوقت نفسه هو معتقدات الشعب . وإني لأحب أن أفرق بين الدين والمعتقدات الشعبية ، وأن أبين أني معني أصلاً في هذا المقام بما أعتقد أنه يجب أن يسمى الدين . ولكني أحب في الوقت نفسه أن ألاحظ منذ بداية الأمر أن الخرافات الشعبية منتشرة بين جماعات الشعب في الصين انتشارها بين جماعات الشعب في أية أمة من أمم أوربا . فدين بوذا وتعاليم تاووتسي قد أعانت على ظهور معتقدات وإقامة مراسيم سخيفة بين الشعب

يؤسف لوجودها. ولكن دين المسيح أيضاً قد احتضن عندكم مثل هذه المعتقدات والمراسيم . إن طبقة الشعب عندنا كطبقة الشعب عندكم تطمع فى أن تغير من سير الطبيعة وأن تحظى بالنفع المادى الشخصى بواسطة الصلاة وإقامة الطقوس الدينية. وإنهم ليؤمنون بالعفاريت والجان كما كان الروم الكاثوليك يؤمنون بالأولياء الصالحين . والذى لا شك فيه أنهم يعبدون الأصنام و يصطنعون السحر ويؤدون فروض ما تأمرهم به القساوسة كما تفعلون أنتم . ولكنى امرّ بهذا على أنه دخيل على الدين الحق لأمة من الأمم ولا أعده إلا مظهراً من مظاهر ضعف الطبيعة الإنسانية . بل إن الأمر لا يعدو أن يكون كل هذا وسيلة لأن ينفث الروح بها ما فيه من أخلاط خبيثة شريرة . ولكن العقيدة التى بنيت عليها حضارتنا والتشريع الذى تقوم عليه يختلفان عن هذا جد الاختلاف . إن هذه العقيدة وهذا التشريع هما اللذان طالما أساء الأوربيون فهمهما وهما حقيقتان ببضع كلمات اشرحهما بها .

لقد قيل إن الكونفوشية ليست ديناً أصلاً . فإذا كنا

نعنى بالدين طائفة من القضايا والمعتقدات التعسفية تتعلق بدنيا أخرى خارقة متميزة اصلاً من دنيانا التى نعيش فيها فإن هذا القول يطابق الواقع كل المطابقة . لقد كان هم كونفوشيوس أن يحارب التفكير فى كل ما هو خارق وأن يقضى على التأمل فيما وراء الطبيعة واشتغال البال بمثل هذه الأمور . وكان التاميذ المخلص المؤمن يجتهد ما استطاع فى أن يقفو آثار أستاذه . ويقول زعيم من زعمائنا القدامى « احذروا الدين ». يريد بذلك احذروا الخرافات والأساطير . فبهذا المعنى ، وبه وحده، ليست الكونفوشية بدين. ويقال أيضاً ما الكونفوشية إلا نظام خلقى . وهذا بدوره حق أيضاً . فهى فى الواقع قد جعلت هدفها ومضمونها أن تقود إلى السلوك القويم فى الحياة وأن توحى به . ولكنها من جهة أخرى، وهذا ما أريد أن أبينه بكلامى هذا ، ليست مجرد تعاليم. إنها فى الواقع حياة كاملة تامة . فالمبادئ التى تتضمنها هى المبادئ التى ينطوى عليها كياننا الاجتماعى كله وإن مبادئ الكونفوشية لا تقرر بألفاظ مكتوبة أو مسموعة، إنها تقرر بأعمالنا اليومية وحياتنا العادية

فالتوحيد التام بين الأسرة والدولة كما قرره القدماء بعبادتهم ليس فى الواقع أساس الدين الذى يعتقده الصينى ولكنه الحياة التى يحياها بالفعل .

ومهما يكن الدين الذى يؤمن به ، دين بوذا أو تو واتسى أو المسيح ، فإن الذى يهمه حقاً هو هذا التوحيد عملا . فالأجيال الماضية والأجيال القادمة تكوّن مع هذا الجيل الذى يحيا بالفعل كلاً واحداً متماسكاً تاماً . وهذا الكل يعيش أبداً وإن يكن جيل واحد منه هو الذى يحيا على الأرض . لذلك كانت عبادة الأجداد رمزاً لفكرة اجتماعية هائلة فى قدرتها على أن تربط الجميع وتجعلهم كلاً واحداً متسانداً قوياً . وإن آثار هذه الفكرة ليجب أن ترى عياناً فى الصين حتى يتمكن الإنسان من أن يدرك قوتها ويصدق وجودها ، ولكن عندكم أتم مثلا منها فى مدنية عرفتموها معرفة أقرب وأحسن وأعنى بذلك مدنية روما القديمة .

هذه إذن أول ظاهرة فى ديننا القومى وأبرزها . ولكن هناك ظاهرة لا تقل عن هذه خطراً من حيث أثرها فى حياتنا

الاجتماعية . فالكونفوشية ما هى إلا بيان لفكرة العمل ، بل العمل على أنه المثل الأعلى فى الحياة . وإن روادكم الذين جاءونا فى القرن الثامن عشر فلاحظوا عادة الحرث الإمبراطورى الذى نقيمه كل عام ونعدّه من مناسك الدين فجعلوا لهذه العادة خطراً بارزاً وأثراً واضحاً كانوا أقرب إلى فهم لباب مدنيتنا من هؤلاء المستطلعين الذين جاءوا فيما بعد وكانوا أقل استعداداً للإحساس بما نحس . إن واجب الإنسان أن يعمل وأن يفلح الأرض خاصة لأساس من أهم أسس ديننا وأخطرها . ومن ثم نشأت عبادة أمنا الأرض منبع كل نماء وحياة ، ومن ثم أيضاً جاءت عبادتنا للسماء مانحة النور والمطر . وهكذا وجد هذا النظام الاجتماعى الذى نعيش فى ظله والذى يهدف أول ما يهدف لأن يمهد جميع السبل للاتصال بالأرض . وما المثل الأعلى الذى وضعناه أمام شعبنا إلا هذا المثل البسيط الذى لا يحتاج إلى كبير عناء فى فهمه وهو أن يكرس الكل حياتهم باختيارهم للعمل فى إخاء وسلام تباركهم قوى الأرض والسماء جميعاً . وإن لباب هذا المثل الأعلى هو الفكرة التى

انطوت عليها نظمنا السياسية جميعها . فإذا أردتم إلى جانب ذلك طائفة من الإلٰهيات والتعاليم النظرية لتفسير عقيدتنا الساذجة الواضحة البسيطة فلقد توفر لتلاميذنا وأتباع مذهبنا شيء منها أيضاً . وإنهم ليُعلَّمون أن الإنسانية كائن روحي أبدي يتجلى على مرّ الزمن في صورة أجيال تتعاقب بعضها إثر البعض . وهذا الكائن هو الصلة الحية بين السماء والأرض . بين المثل الأعلى والحقيقة الواقعة . وما الغاية التي تسعى إليها البشرية وما هذا الذي يُقصد بالحياة الإنسانية إلا العمل المتواصل في إخلاص وصبر لرفع الأرض نحو السماء لتحقيق المثل الأعلى لفكرة الخير عملا على هذه الأرض . وفي سبيل تحقيق تلك الغاية نتحد جميعاً ونحافظ على اتحادنا . نتحد كل منا بالآخر ونتحد جميعاً مع الله . وإن هذه لعقيدة خليقة بأن تسمى دينا . ولكنى لست أزعم أن الشعب يدرك أنه يؤمن بهذه العقيدة أو أنه يفقه كنهها . فالشعب في أية أمة من الأمم لايدرك ما يؤمن به ولا يكثر التأمل فيما يعتقد. ولكنى أزعم أن حياة شعبنا منظمة بحيث تتفق وأسس عقيدتنا ،

وأنها مهيأة بحيث لا تتعارض فى شىء مهما يكن مع تلك العقيدة . والشعب كله يسير وفق تعاليم فلاسفتنا وإن لم يعلن إيمانه بهذه التعاليم . وإن الفكرتين الأساسيَّتين اللتين يجب أن يرتكز عليهما كل بناء اجتماعى وهما قدسية الإخاء بين أفراد المجتمع وكرامة العمل لمقربتان فى صورة مباشرة قوية ، بحيث لا تحتمل شكا ولا تقبل جدلاً ، من نفوس الشعب بنفس كيان نظمنا الاجتماعية الأبدية الدائمة .

هذا فى إيجاز هو لباب العقيدة الكونفوشيه وجوهرها كما يراه الصينى المتعلم . فإذا كان إدراك هذا الجوهر وفهمه صعباً فإن الأصعب هو إدراك كنه المسيحية . فلقد تعذر علىّ حتى الآن ، بعد إقامة طويلة فى أوربا ، أن أدرك ذلك أو أقدره . وإنى لألتمس لنفسى الأعذار إذا ما حاولت أن أدون هنا بعض ملاحظاتى على دينكم كما تبدو لى وقد تجمعت لدىّ من دراسة كتبكم المقدسة دراسة ما ، ومن قراءة تاريخكم وتتبع خطوات حياتكم المعاصرة . ولم أضع نصب عينى وأنا أدرس وأقرأ وأتتبع مسألة صدق دينكم أو كذبه ، فلعلى لست أهلاً للحكم فى مثل

تلك المسأله . ولـكنى أردت بوجه خاص أن أتبين ، أثناء ذلك، علاقة دينكم بنظامكم الاجتماعى وأثره فيه. وفى هذا المجال، أكثر من أى مجال آخر، أرى اتساع هوة التناقض والاختلاف بين مدنيتكم ومدنيتنا . فإنى لم أستطع مطلقا أن أرى مجتمعكم يقوم على أساس مما تؤمنون به من دين . ولم يدهشنى ذلك فى شىء إذا كان ما قد فهمت عن طبيعة دينكم حقاً . فالذى أفهمه هو أن المثل الأعلى الذى يرسمه لكم إنجيلكم ويجلوه لكم فقهاؤكم بدرسهم ونقاشهم ليس هو العمل على هذه الأرض ولـكنه التأمل فى السماء ؛ وليس هو فكرة الوحدة التامة بين كافة الجنس البشرى ولـكنه تميز طبقة القديسين . ولست أجرؤ أن أتساءل أى المثلين أرقى ؛ أمثلنا نحن أم مثلكم أنتم . ولـكنى لا أملك إلا أن أقرر أن مثلكم أقل صلاحية للتنفيذ العملى .

وإنه لمن الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، أن تقيم مجتمعاً ثابت الأركان موطد الأساس على فكرة تصور الحياة بحيث نراها مجرد حادث عرضى فى مأساة تقع أهم أحداثها فى السماء لا على الأرض .

وإن إهمال ما يبدو من الناحية الدنيوية هاماً خطيراً والفوضى فى الفروق والمميزات المادية بحيث تضيع معالمها فى أفق الآخرة الغامض البعيد ، وتنظيم دقائق حياة الجماعة تنظيما كيفما اتفق لأن الاهتمام بها والاشتغال بأمورها لا يمكن أن يليق بالمؤمنين المتدينين ، كل هذا كان فيما يلوح الثمرة الطبيعية لاعتناق المسيحية اعتناقا مخلصاً صريحاً . وهذا إن لم أخطىء هو طابع مدنيتكم فى تلك العصور التى تصفونها بأنها عصور الإيمان الذهبية . وإن الزهد والرهبنة وسيطرة القسس وتضاؤل شؤون الحياة والموت بعد ما حجبتها وحقرت من شأنها أحداث جهنم والسماء العظيمة ، وتقديس التسول واحتقار المال وشل التفكير والعقل وقص أجنحة الخيال والحرب بين القوى الروحية والجسمية والنزاع العنيف بين الجسم والروح والانقسام فى كل شىء والصراع والاضطراب والجنون النفسى والعقلى لهى كلها مميزات ذلك العهد فى تاريخ الغرب ، يوم حاول الدين المسيحى أن يتخذ لنفسه صورة واقعية . لقد شهد التاريخ نزاع الحياة أو الموت بين مثل أعلى نخم عظيم وبين حقائق الحياة المادية

والنفسية ، وخرج المثل الأعلى من هذا الصراع مخذولا مهزوما .
وخرج العالم الغربى من عناء المعركة كما دخلها أول الأمر مشغولا بهذه الحياة الدنيا دون مداراة ، مستطلعا فى صراحة وقوة أسرار الحياة ، قد وطد العزم فى حرارة وحماس على أن يسيطر على قوى الطبيعة جميعها وأن ينعم بالجمال والمال والذكاء وقوة الشخصية والسلطان . ومنذ ذاك إلى الآن ، وإن كنتم لا زلتم تعلنون إيمانكم بالمسيحية ، لم تقم أية محاولة لأن تجعلوا نظم حياتكم الدنيوية مسيحية بالفعل . بل على النقيض من ذلك كان همكم أن تمحوا كل أثر من آثار هذا النظام القديم وأن تفصلوا فصلا تاما بين الكنيسة والدولة ، بين الإيمان الديني بنظامه ومناسكه وبين الحياة العملية والواقع : لقد أسلمتم مجتمعكم فى صراحة ووضوح إلى عوامل السياسة والاقتصاد تتلاعب به كيفما شاءت ؛ فكانت النتيجة ما قد حاولت أن أصف فى رسالة من رسائلى السابقة .

وبينما خلص مجتمعكم إلى الأساس المادى البحت نراكم لم تكفّوا عن إعلان أن المسيحية دينكم . ولكن هذا الدين

بعد أن اقتطع من جذوره الطبيعية فى حياتكم الاجتماعية قد اتخذ لنفسه مظاهر لا يمكن إلا أن تتصف بأحد الوصفين . فهى إما خطرة شديدة الخطورة أو هى عاقر معطلة لا أثر لها.

فهؤلاء الذين يعلنون تمسكهم بالمسيحية ، وقليل هم هؤلاء الذين لا يفعلون ذلك بطريقة ما، إما أنهم يعلنون ذلك بأفواههم، وبهذه الطريقة يكونون قد أرضوا تطلعهم إلى مثل أعلى ، هذا التطلع الذى لا يمكن لأحد أن يتحرر منه تحرراً كاملا ، ثم هم يلتفتون إلى أنفسهم وإلى السعى وراء مآربهم الشخصية لا يتقيدون بعقل ولا بضمير . أو أنهم يكونون فعلا متأثرين فى عقيدتهم بتعاليم السيد المسيح فيُلفون أنفسهم قد دفعوا دفعاً لا خلاص منه نحو أن يصبحوا من الثائرين على المجتمع والحياة. لأن هذه التعاليم لا بد لها من أن تبدو مناقضة لبناء مجتمعكم من أوله إلى آخره إذا ما قبلت قبولا مطلقا أو فسرت تفسيراً مرضياً . إن هذه التعاليم التى بشّر بها منذ قرون خلت رجل متواضع مخلص متحمس من الشرق ، لم يكن قد تعلم ولم يكن قد تثقف برحلة أو معرفة ولم يكن قد جرّب الحياة تجربة

كافية ، تمتاز أكثر ما تمتاز بما حضت عليه في رقة وخلابة من محبة وإخاء لا بما حقّرت أو أغفلت على الأقل من عناصر الامتياز الأخرى فى الطبيعة الإنسانية . إن هذا الرجل الذى عاش فرداً من أفراد رعية أغسطس وتيبيريس قد عاش ومات وهو لا يدرى شيئاً عنهما . بل لا يدرى شيئاً عن تاريخ روما وما قد كتبه عليها القدر من حظوظ . وإن هذا الرجل الذى عاصر فرچيل وليفى (المؤرخ الرومانى العظيم فى عصر أغسطس الذى خلّد تاريخ روما بشعره الممتاز منذ نشأت إلى أيامه) لم يكن ليستطيع أن يقرأ شيئاً من اللغة التى كتبا بها شعرهما. إن هذا الرجل الذى يعدّ ريفيا مولداً ومجرد صانع حاذق بحكم ما امتهن فى الحياة من مهنة وشاعراً بما قد ركب فيه من طبع ومتصوفا زاهداً لم تواته فى حياته القصيرة إلاّ قلة من الفرص المواتية ، قد أبدى أقل استعداد لأن يتعرف مبادئ هذا العلم الذى يسعى إلى إسعاد الدولة ورفاهية أبنائها . فإنتاج الثروة وتوزيعها وتقسيم السلطان ونظامه والقوانين التى تنظم العمل والملكية والتجارة ، كل هذه كانت مسائل لا تعنيه ، بل إنها كانت بعيدة عن مداركه . إن

أحداً لم يُعدّ خيراً مما أعد هذا الرجل ليكون أهلا لأن يوحى إلى من حوله بمذهب جديد، ولكن فى الوقت نفسه، لم يُعدّ أحد شراً مما أعد ليؤسس حكما أو ليدبر أمراً. ومع هذا فإنه هو هذا الرجل الذى قبل الغرب تعاليمه الساذجة فى إنكار الذات على أنها دين يؤمن به. نعم هذا الغرب الذى نراه أحسن مثل للعنف والسطو والإقبال على النزاع والحروب. فأى عجب إذن تعجبون من أن يكون تاريخكم قصة طويلة مؤثرة لكل ما هو عداء وفوضى وحروب ومذابح واضطرابات. نعم أى عجب تعجبون من أن تكون القوى الروحية والقوى الدنيوية مذبذبة الحال تترنح بين حرب معلنة حينا ومهادنة تحس كل منهما فيها الهوان والذلة حينا آخر. ولا غرو أنه ما من أحد منكم قد تجلى له هذا الدين تجليا ممتازا، منذ ظهر إلى اليوم، إلا نفر مرتاعاً من مجتمعكم هذا الذى يدّعى لنفسه أنه يقوم على أساس من هذا الدين ويحقق تعاليمه على الأرض. وإنه لمن عدل نمسيس (آلهة الانتقام العادل عند اليونان القدماء) أن يكون حظ العقيدة المثالية التى لا تعلم الواقع

والحقائق المادية أنها لا تستطيع أكثر من أن تجمع ، بعيداً عنها وفى تنافر فيما بينها ، تلك القوى التى كان يجب أن تحكمها هى بل أن تشكلها من كيانها ولبابها . وهكذا يظل الروح بلا جسد والجسد بلا حس ولا حياة . هكذا كانت الحال وهكذا هى الآن فى نظامكم الحكومى . فهو يدعى أنه يمثل مثلا أعلى قدسياً علوياً وهو لا يمثل فى الحقيقة شيئاً من هذا . بل إنه لبعيد عن أن يتصف بصفة إنسانية واحدة . وإنه لنظام من الأرض بل من التراب بل من أحط منه ، بينما ينبعث من السماء التى تظلله صوت هذا الناصرى وكأنه صوت طيف آت من بعيد ملؤه الصفاء والنقاء والعذوبة والرقة كما انبعث لأول مرة من شواطىء الجليل يعلن حربه على سلطان روما وقوتها التى كان العالم كله يقوم عليها .

إن وجهة نظرى تلك التى تجاسرت على عرضها فى بساطة ووضوح كما شعرت بها فى صدد علاقة مجتمعكم بما تعتنقون من دين ، سيكون نصيبها فيما أنا مدرك وموقن العجب من القراء إن لم يكن الازدراء . فاسمحوا لى إذن أن أضرب

لها مثلا يؤيدها ، مثلا سيكون له من جلائه ووضوحه ما يكفل له النجاح فى أن يؤثر فى أشد الناس نفوراً من مواجهة الحق والواقع .

إن يكن هناك من تعاليم السيد المسيح ما يميزها ، فهو نهيه عن كل نوع من أنواع العنف . ولا يمكن لأحد أن يقرأ الإنجيل، دون تحيز أو تعصب ، من غير أن يلفت نظره هذا التأكيد المتكرر كثيراً لهذا المبدأ « من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ». هذه هى كلماته وقد نطق بها جاداً غاية الجد مخلصاً كل الإخلاص . إنه لم يقلها مجازاً ولم يُنصّبها مثلاً أعلى للكمال يُرغب فيه ولا يمكن الوصول إليه . كلا إنها كلمات الإيمان والحق قد غذّاها قائلها بكل ما أتى به من فعال وما اتصف به من صفات . وإن المبدأ الذى تقوم عليه هذه العبارة لجدير بأن يناقش . فقد يقال مثلا ، كما قال ذلك أكثر الناس فى كل العصور ، إن القوة ضرورة لا مفر منها للمحافظة على تماسك المجتمع وسلامته. وإنه من دونها لا يمكن أن نحقق أمناً أو نظاماً أو نصون سلما . ولكن الذى يقول هذا لا يمكن

أن يكون مسيحياً أى تابعاً مخلصاً أمينا للسيد المسيح . فإذا كان الواقع ، وهو لا يمكن إلا أن يكون ، أن أمم الغرب جميعاً قد آمنت بالقوة طوال تاريخها كله فإن لهذه الأمم أن تصف نفسها بما شاءت من صفات ولكنها لا يمكن أن تقول عن نفسها إنها مسيحية . ولكنكم تأبون أبداً أن تعترفوا بهذه النتيجة المنطقية . لقد فسرتم عبارة مؤسس دينكم على أنها تعنى غير ما تدل عليه ألفاظها . ولقد جعلتم السيد المسيح، دون أن تتصوروا مدى الخطأ الذى ترتكبون ، حامى القانون الذى عليه تسيرون ورمزه . هذا القانون الذى يرتكز على السجن والمشنقة . ولم تكتفوا بهذا بل جعلتموه بطل كل هذه الحروب التى شننتموها على الناس وحامى حماها . حتى تلك الحروب التى لا يبررها حس إنسانى عادى لأنه يستطيع فى يسر أن يرى ما فيها من إثم وجور . ولأثبت ما أقول ، إن كان ما أقوله يحتاج إلى إثبات ، لست فى حاجة إلى أن أرجع إلى أمثلة من التاريخ . يكفى أن أشير إلى الحادثة التى تحضرنى قبل غيرها بطبيعة الحال وهى هجوم القوات الغربية على الصين . أما أنه كان هنالك استفزاز عنيف

فهذا ما لا أحاول أن أنكره ، ولكن الذى لا شك فيه أن الاستفزاز لم يكن منا نحن أول الأمر .

وأما الذى يملأنى عجبا، وإن شئت أن أكون صريحا قلت الذى يملأنى اشمئزازاً، فهو أن أمم أوربا تحاول أن تبرر عملها هذا من وجهة نظر الإنجيل المسيحى . بل إن من بينهم صاحب السلطان المسيحى الذى يدفع بجنده إلى مهمة انتقامية فيحرضهم على ذلك باسم السيد المسيح . نعم باسمه هو الذى ناشد البشرية أن تدير لمن يلطم خدها الأيمن خدها الأيسر . نعم يحرضهم باسم السيد المسيح أن يهاجموا الآمنين بل أن يقتلوا ويقتلوا دون رحمة ولا هوادة ، لا يفلت منهم مدافع ولا مسالم . أى دليل بعد هذا تريدون لإثبات ما أقول من أن دينكم قليل الأثر فى سياستكم العامة ، بل الواقع أن لا أثر له إطلاقاً فى حكومتكم مها تكن آثاره فى حياة الأفراد . فلربما أثّر دينكم فى قديس اعتزل العالم هنا أو هناك فأوحى إليه ، ولكنه لم يؤثر فى هؤلاء الذين يديرون دفة الأمور فى الدولة ولم يوح إليهم بشىء . فما الفائدة إذن فى ادعائكم أن هذا الدين فى

جوهره أرقى من ديننا . إنى لا أريد أن أتناقش فى موضوع عقيم كهذا . وإن آثاركم لتدل عليكم ، ألم يقل هذا نبيكم الذى تتبعون. وأنا قانع بما تدل عليه تلك الآثار ولا احتكم إلا إليها .

قد لا تكون الكونفوشية ديناً أصلا ، بل إنها قد تكون تشريعاً خلقياً أقل قيمة من المسيحية . ولكنها استطاعت رغم ذلك أن تجعل من الصينيين الأمة الوحيدة على مرّ التاريخ كله التى تمقت العنف وتحترم المنطق والحق . وفى هذا ، مخافة أن تظنوا أنى مغرض ، سأستعين بشهادة مواطنكم الوحيد الذى عاشرنا عن كثب ودامت عشرته لنا أعواماً طوالا . هذا الذى قدّم للصين من الخدمات ما لا يمكن لأى صينى محب لوطنه أن ينساها . وبدل أن تنصتوا إلى النقد المرير من مراسليكم الخاصين الجهلاء أنصتوا قليلا إلى صوت السير روبرت هارت إذ يقول : « إن الصينيين قوم مهذبون محبون للسلم محافظون على القانون أذكياء مقتصدون حاذقون مثابرون نشطون ، أهل لأن يتعلموا أى شىء بل لأن يصنعوا أى شىء .

وإنهم ليراعون الذوق والأدب فى دقة وتأنق وإنهم ليقدسون المواهب والعبقرية ويؤمنون بالحق إيمانا بلغ من إخلاصه وقوته أنهم يحتقرون مجرد التفكير فى أن الحق يجب أن يعتمد على القوة لتقيمه أو تنفذه . وإنهم ليحبون الأدب ويستمتعون به . وترى جمعياتهم الثقافية ونواديهم الأدبية منتشرة فى كل مكان حيث يطالعون ما أنتجوه من شعر ونثر ويتناقشون فيه . وإنهم ليتبعون نظاماً خلقياً حقيقاً بالإعجاب . فهم كرماء محسنون يحبون العمل النبيل ولا ينسون الجميل ويردون الحسنة بأحسن منها . وهم وإن كانوا يعرفون أن المال يستطيع أن يشترى خدمات الناس فإن المرء يجب أن يكون أكثر من مجرد ثرى ليفوز بينهم بالتقدير والاحترام . وإنهم لقوم عمليون فطنون لهم هبة العقل السليم والحكم السليم إلى حد يستحق الإعجاب . وهم صناع حاذقون مهرة وعمال تستطيع أن تعتمد عليهم . ولهم فى معاملتهم التجارية من الإخلاص والأمانة ما هو معترف به من الجميع ، بل ما هو مثار الإعجاب . إن الوصية « إحترم والديك » لم تتحقق فى بلد ، كان أو هو كائن ، بمثل

ما تحققت به فى الصين . لقد نفذت هذه الوصية فى خشية التدين وتحققت فى الحياة العملية تحقيقاً كاملا . إنها الأساس الذى عليه بنيت حياتهم العائلية والسياسية والقومية ومن أجل هذا ستطول أيامهم فى الأرض التى أنعم الله عليهم بها . »

هكذا قال السير روبرت هارت . ولست أطمع فى شهادة أحسن من تلك . فليس فى هذا الوصف فضائل خارقة ولا نكران للذات لا ولا إنكار متعصب لأسس الطبيعة الإنسانية الواقعية . ولكن هذه هى الحياة التى تعاش حسب مثلنا الأعلى المنطقى الحكيم وهذا هو الإيمان بهذا المثل الأعلى . إيمان عميق بلغ من عمقه أنه أغنى عن القوة واستعمالها . « إنهم ليؤمنون بالحق إيماناً يجعلهم يحتقرون مجرد التفكير فى أنه يجب أن يعتمد على القوة لتقيمه أو تنفذه » هكذا قال السير روبرت هارت . واسمحوا لى أن أكرر قوله نعم إننا نحن الذين لا نؤمن برسالة السيد المسيح الذين ننفذ عملا على الأرض رسالة السلام والمحبة . وأنتم أولاء الذين تؤمنون بها تدوسونها بأقدامكم . ويالسخرية القدر إنكم أنتم يا أمم المسيحية الذين جئتم إلينا لتعلمونا بالسيف

والنار أن الحق فى هذه الحياة لاحول له ولا طول إن لم يعتمد على القوة لتقيمه وتنفذه . ولـكن حذار من أن تظنوا أننا لم نتعلم هذا الدرس . وويل لأوربا كلها يوم نفهم ما تعلمناه ونستوعبة . إنكم تجندون أمة من أربعمائة مليون . أمة لم تكن، حتى جئتم إليها ، لترغب فى شىء قدر ما ترغب فى أن تعيش فى سلم وأمن بينها وبين نفسها وبينها وبين الدنيا كلها من حولها . لقد قرعتم طبول الحرب باسم السيد المسيح ، وباسم كونفوشيوس سنهب للقتال .

الرسالة الثامنة

لقد تجنبت حتى الآن أى نقاش مفصل فى الصلات السياسية والتجارية القائمة بيننا وبين الغرب ، بل تجنبت أى عرض للحوادث التى أدت إلى هذه الحال التى نرثى لها جميعاً . لقد فضلت أن أحاول استمالتكم نحو الطابع العام لمدنيتنا وأن ألحظ النقط الأساسية التى تختلف فيها عن مدنيتكم وأن أبرز الأحوال الأساسية الهامة الدائمة التى تجعل التفاهم بيننا أمراً يبلغ من العسر والوعورة مبلغاً عظيماً . ولست أخفى على نفسى أن القارئ ، حتى إذا ناصرنى ، سيطلب إلىّ أكثر من هذا . وهو فى طلبه هذا لايشتط ولا يتجنى. وأنا مضطر إذا حاولت إرضاءه أن أدخل فى موضوع النزاع القائم بيننا مهما كرهت ذلك . فله الحق أن يسألنى مثلاً إن يكن حقاً أن قومك يتصفون بما تصفهم به من مميزات ، وإن يكن حقاً أن قومك قد بلغوا من العدل والاستقامة والنفور من العنف مبلغاً عظيماً

فكيف تسنى لهم أن يخرقوا العرف فى المجاملات الدولية هذا الخرق الذى لم يعرف التاريخ أفظع منه . كيف جاز لهم أن يرتكبوا ما أثار الشعور الأدبى فى جماعات تراها أقل منكم ثقافة وإنسانية، لا بل ما أذهلهم .

ولأجيب على هذا السؤال أحرص أن أقرر أنى لم أدّع أن الصينيين قديسون . لقد قلت، ولا زلت أقول ، إنهم إذا تركوا لأنفسهم وإذا لم يعبث أحد بالنظام الذى اعتادوه فى حياتهم فهم أكثر شعوب الأرض حباً للسلم ومحافظة على القانون . فإذا كسروا الحواجز القديمة الأزلية التى اعتادوها ، وإذا كشفوا عن مخالب الوحش ، التى لن تقلمها مدنية سواء فى ذلك مدنيتنا ومدنيتكم مهما أخفتها ، فإن عنف الانفجار نفسه لا يدل إلا على عنف الاستفزاز والإثارة . أتدركون ماذا كانت هذه الإثارة ؟ إنى أشك فى ذلك . ألا فلتسمحوا لى إذن أن أدون الوقائع وأسرد الحقائق .

عند ما جاء تجاركم أول ما جاءوا إلى الصين لم يكن ذلك بناءاً على دعوة منا وجهناها إليهم ليأتونا . ومع ذلك فقد قابلناهم

لا أقول فى حماس ولكن فى احتمال بل فى تسامح . ولقد كنا مستعدين أن نؤمّن لهم تجارتهم ما داموا قانعين بأن يرعوا قوانيننا . ولكن على شرط دائم ألا تقلقل تجارتهم شيئاً فى نظامنا الاجتماعى والسياسى . ولقد حافظ بنو وطنكم على هذا الشرط أول الأمر . ولسنين عدة ، بالرغم من منازعات بين حين وآخر ، لم يقم بيننا وبينكم أى نزاع جدى . لقد بدأ الشر حول أمر لم تجرؤوا أنتم أنفسكم على أن تدافعوا فيه عن مسلككم . لقد كان جل تجارتكم فى الأفيون ولقد لاحظنا أن استعمال هذا المخدر قد أضر بقومنا صحياً وخلقياً ولذلك أبطلنا هذه التجارة ومنعناها . ولكن تجاركم بالرغم من ذلك أغفلوا القانون وهرّبوا الأفيون فقادونا مضطرين إلى أن نضطلع نحن بالأمر . فصادرنا الشحن كلها من المخدر المحرم وأتلفناها . واتخذت حكومتكم من عملنا هذا تعلة للحرب . فغزوتم أرضنا وفرضتم علينا غرامة وتعويضاً وأخذتم منا جزيرة هونج كونج . فهل هذه بداية تبشر بالخير؟ أوكان مقدراً لهذه البداية أن تؤثر فينا أحسن أثر؟ وهل رميتم بذلك إلى أن

تعرضوا علينا نموذجاً من عدالة الإنجليز واحترامهم للحق ؟
ومرّت السنين وإذا نزاع تافه حول ما يجب للعلم البريطانى
من احترام ، نزاع لا زلنا نعتقد أننا نحن الذين كنا فيه على
حق ، قد ردنا مرة أخرى إلى الصدام بكم . وانتهزتم فرصة
النزاع المشؤوم لتتقدموا بطلبات جديدة . فلقد تعاونتم مع
فرنسا واحتللتم عاصمتنا وفرضتم علينا شروطاً لم يكن من
المعقول أن تجسروا على فرضها على أية أمة أوربية . ولقد قبلنا
الشروط لأنه لم يكن من الإذعان بد . إننا لم نكن قوة حربية.
ولكن أتظنون أنه ما دمنا لم نستطع أن نقاوم أن إحساسنا
بالعدالة والحق لم يثر ولم تنتهك حرمته . ثم جاءت كل قوة
فى أوربا واغتصبت جزءاً من أرضنا واستخلصته لنفسها .
أتظنون أننا ما دمنا قد عجزنا عن المقاومة أننا عاجزون أيضاً
عن الإحساس والشعور . ألستم فى نظر الصينى ، الذى يراكم
من خلل علاقتنا بكم منذ نيف وستين عاماً ، أرقى قليلاً من
سارق الليل أو قرصان البحر . نعم إنها لنظرة أقسى مما يجب .
ولست أنظر أنا بها إلى الأمر كما هى. لقد درست وثائقكم

الرسمية الخاصة بالموضوع فخرجت من هذا الدرس وأنا مسلم أنكم ترون لأنفسكم على الأقل بعض الحق فيما فعلتم بنا . وأنا فى الوقت نفسه مدرك ما للشؤون الإنسانية من تعقيد واختلاط ومقدر هذا تقديراً يجعلنى لا أنكر أنه قد يكون هناك شىء من الحق فيما تعتقدون . ولكنى ما زلت مُصراً أن أطلب إليكم أن تنظروا إلى الحال من علّ ؛ وأن تقدروا الحقائق الكلية العامة ؛ وأن تدعوا جانباً هذه الخلافات الأبدية التى تظهر فى كل فجوة من تفاصيل هذا النزاع . من منا كان المعتدى فى هذا الأمر من أوله إلى آخره ؟

ولننظر إلى جانبنا على أسوأ الفروض . فهل فعلنا أكثر من أننا عزمنا عزماً أكيداً متعصباً أن نصون مجتمعنا وعاداتنا وقوانيننا ونظام حكمنا ونحميها من آثار مدنية أجنبية . أنحن المعتدون أم أنتم الذين صممتم على أن تكسبوا كسباً تجارياً فأصررتم على أن تدخلوا أرضنا بالقوة وبأى ثمن ، بل على أن تأتوا إلينا مع بضائعكم ببذور ثقافتكم وأفكاركم لتبذروها بيننا . فإذا كنا قد ارتكبنا ما يبرر تكرار الاعتداء علينا فى هذا

النزاع الذى لم يكن له بد من أن يقوم بيننا فإن عذرنا فى ذلك أننا لم نرتكب أكثر من الدفاع عن أنفسنا . إن سيئاتنا ، أن تكن لنا سيئات ، ما هى إلا استطراد فى قضية قوامها الحق البين الواضح . أما سيئاتكم فهى هى لباب قضيتكم وكل فحواها .

وتأملوا معى مليا هذه الشروط التى فرضتموها على إمبراطورية عتيقة عزيزة الجانب . إمبراطورية عاشت قرونا وهى تؤمن أنها أم الحضارة ورأس المدنية . لقد اضطررتمونا رغم أنفنا أن نفتح موانينا أمام تجارتكم . ولقد أرغمتمونا على أن نسمح بتجارة مخدر نعتقد أنه يفتك بأبناء وطننا أشد الفتك . ثم ميزتم مواطنيكم الذين يقيمون بيننا وجعلتموهم فوق القانون لا يسرى عليهم ما لبلادنا من قوانين . لقد سيطرتم على حركة التجارة والنقل فى موانينا وها أنتم أولاء تطالبون بنفس هذا الحق فى تجارتنا النهرية الداخلية وتدّعون لأنفسكم الحق فيها . وكل مقاومة من جانبنا لم يكن يتبعها إلا طلبات جديدة واعتداءات تضاف

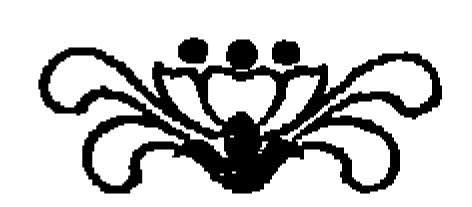
إلى قائمة اعتداءاتكم القديمة . وفى كل هذا وقفتم منا وقفة المتمدن يعامل متوحشين . لقد أرغمتمونا على قبول مبشريكم وعندما استثاروا الشعب بحماسهم الجاهل المتعصب فثار ضدهم جماعات مهتاجة انتهزتم أنتم الفرصة فجعلتم من ذلك تعلة لسلب جديد . حتى أصبحنا ، ولنا العذر ، نعتقد أن الصليب رسول السيف الذى يؤذن بمجيئه وأنكم لا ترون لدينكم نفعا إلا أنه سلاح حرب . قدّروا مليا شعور الإنجليزى إذا ما عومل هذه المعاملة . قدروا أننا إحتللنا ليڤرپول وبرستول وپليمث احتلالا دائما أبدياً وأننا نثرنا على أرضكم آلافاً من مواطنينا وجعلناهم فوق القانون الذى تخضعون أنتم له ، وأن بواخرنا ومراكبنا تدافع مراكبكم وبواخركم لتطردها من موانيكم وأنهاركم، وأننا صممنا على إدخال الخمور خالصة من الضريبة لتكون سبباً فى هلاك شعبكم هلاكاً لا مرية فيه ، أو أننا أرسلنا إلى كل بلدة من بلدانكم نوابنا ليناقضوا تعاليم كنيستكم ويقوضوا كيان إيمانكم الذى اعتدتموه وعليه ترتكز سلامة المجتمع . تصوروا أنكم أُخضعتم لكل هذا فهل كان يثير عجبكم بل هل كنتم

تسخطون حقا إذا رأيتم يوماً السفارة الصينية وقد أحيطت بجمهور صاخب ساخط من الرعاع أو رأيتم المبشرين الكونفوشيين يصادون فى كل مكان ليقتلوا . فبأى حق إذن تعجبون بل بأى حق تسخطون على شر ما قد حدث فى الصين . وما هذا الذى ترونه شاذا أو فظيعا فيما قد أتيناه . إن السفارة أرض حرام فى القانون الدولى . وهذا ما نسلم به . ولكن اذكروا أنكم أنتم الذين أرغمتمونا بحد السيف على أن نقبل السفارات والمفوضيات فى أرضنا ، ونحن نراها أبداً أنها عنوان الذلة الدولية . ولكن رعاعنا كانوا قاسين متوحشين. نعم لقد كانوا للأسف كذلك . ولكن جيوشكم أيتها الأمم المسيحية؟ اسألوا عنها هذه الأرض الطيبة من بيكين إلى الشاطىء التى كانت فى يوم ما آمنة مثمرة . اسألوا جثث القتلى ، اسألوا النساء والأطفال وقد ريعت وذعرت . اسألوا البرىء وقد أخذ أخذاً دون تمييز بذنب المذنب واسألوا السيد المسيح الذى أحب الإنسانية وأنتم تعلنون أنكم أتباعه الأوفياء. نعم اسألوه أن يحكم بيننا وبينكم. أما نحن فقد قمنا فى يأس جنونى لننقذ وطننا وأرضنا وأما أنتم

فقد جئتم لتقتصوا جرماً بجرم ؛ ولم تقفوا لتفكروا فى أن الجرم الذى ارتكب لم يكن إلا رداً على ظلم وجور .

ولـكن كل شىء قد مضى ، إلى حين على الأقل . ولست أريد أن أثير الماضى أو أن أقف عنده . ولـكن الدرس الذى علمنا إياه الماضى هو الرائد الوحيد الذى سنتبعه فى سياستنا المستقبلة. إنـكم يا أمم الغرب ما لم تدركوا الحقيقة كما هى وما لم تدركوا أن الأحداث التى عصفت بأوربا اليوم ما هى إلا انتقام الآلهة العادل من سلسلة مظالم واضطهادات محكمة الحلقات ، وما لم تعلموا أن ما بين مدنيتنا ومدنيتـكم من اختلاف لا يبرر أن تنظروا إلينا على أننا متوحشون لأنه لا يبرر أن ننظر إليـكم على أنـكم كذلك . وما لم تعاملونا على أننا قوة متمدنة محترمة وما لم تحترموا عاداتنا وقوانيننا ، وما لم تعاملونا كما تعاملون أية أمة أوربية وما لم تـكفوا عن فرض شروط لا يمكن حتى أن تحلموا بفرضها على أية دولة غربية ، نعم ما لم تفعلوا كل هذا فلا أمل هناك فى سلم يكون بيننا وبينكم . لقد أذللتم أعز أمة فى الأرض وأكرمها ، ولقد استثرتم من الناس أطيب قوم

وأعدلهم . والثمن لكل هذا معروف معلن . فإذا كان الجهل عذركم فلا تتخذوه عذراً بعد اليوم . تعلّموا كيف تفهمونا فإذا فهمتمونا كان ذلك أدعى لأن تحسنوا فهم أنفسكم . وما كتابتي هذه الرسائل ونشرها إلا مساهمة مني في سبيل الوصول إلى هذا التفاهم بيننا . فإذا كنت قد أسأت إلى أحد فإني آسف على ذلك ، ولكن إذا كان هو الحق الذي يسوؤكم فإني لا أعتذر بل لا أعد نفسي مطالباً بأن أفعل .



فهـــرس



١٩٤٧/١٩٨٧

